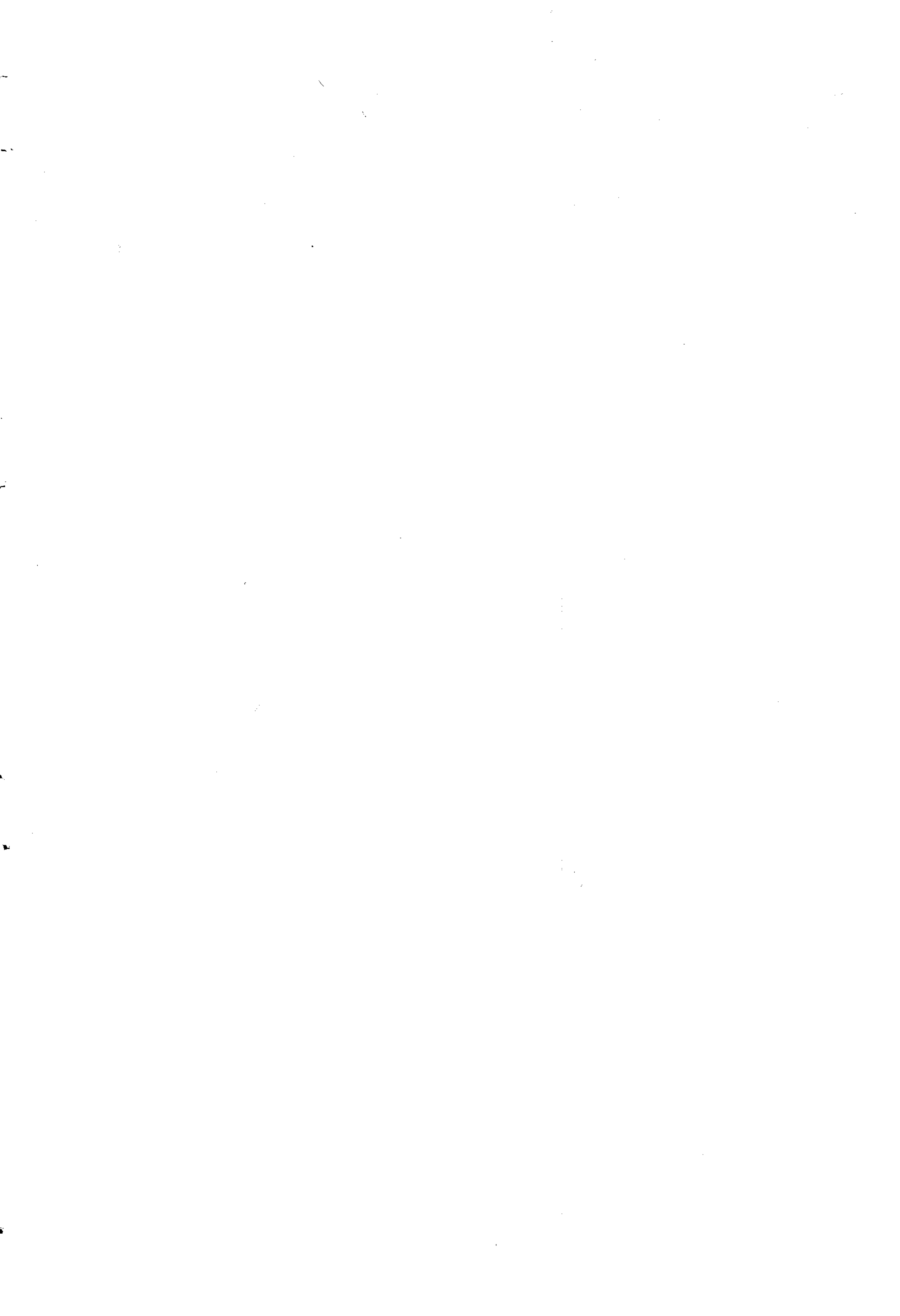
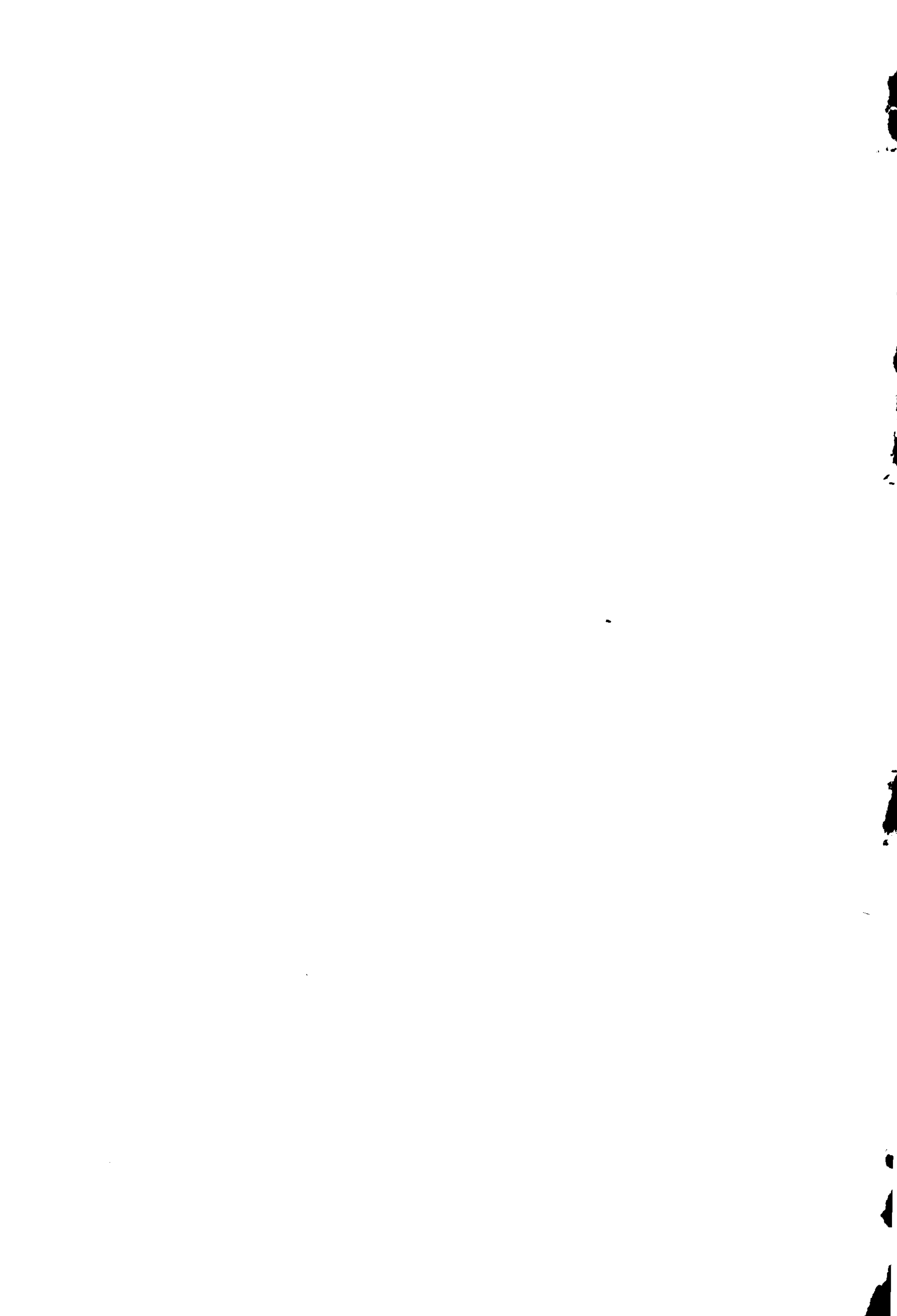
فهد قاسم الموسى

صور من طبائع الناس



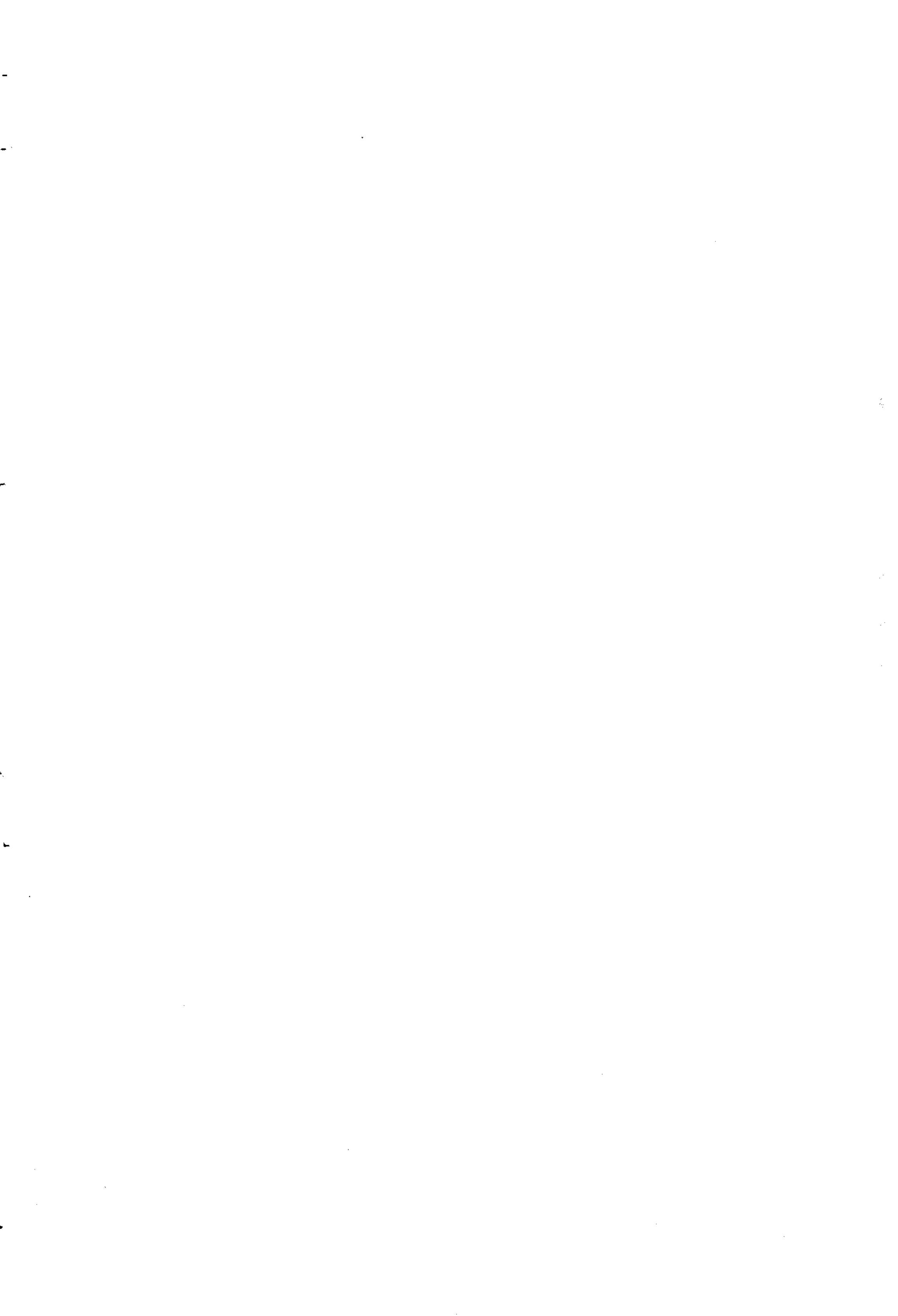

صور
من طبائع الناس





الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى من اهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد .

كتاب ــ صور من طبائع النّاس ــ مواضيع قصيرة ــ أقرب للخواطر ــ كنت أكتبها في أوائل التسعينات هجريّة ، ودافعي لإخراجها في كتاب لا لأن جريدة الرياض كانت تنشر أعداداً منها لعام ١٣٩١ هـ . تحت عنوان ــ مع النّاس ــ وليس على سبيل أن تجمع ، وتخرج لتكون هذا الكتاب .. بل لأنها كانت لملء فراغ كان يصرف النفس إلى أن تدوِّن دور أو أدوار مع بعض النّاس ، من دراستي لنفسيّة الشخص ، حركاته ــ سكناته ــ إنفعالاته ــ أحاسيسه ــ مشاعره ــ ساعة سخطه ــ ساعة رضاه ، وكان حقلي في ذلك ، إما معهد تدريس يجمع في مهاجعه حشد كبير من الدارسين ، يأوون إلى مضاجعهم ليلاً ، أو كلّيّة ، أو مدرسة ، أو مقر عمل .

هذه الصروح كانت مدعاة إلى إلفة ، أو إلى شقاق بين اثنين ، أو أكثر على مسمع ومرأى من المؤلف ، فيسجلها في نفسه ، ثم يخرجها بموضوع قصير ، وقد يحسن ، أو يسيء الظنّ بنفسيّة شخص ما ، قد يعبث في أدغالها ليستشف منها ملامح يتعرّف منها إلى بواعث الخير ، أو نوازع الشرّ لديه فيكتبها .

والشخصيات التي اخترت لأن تكون أسماؤها تصغيريّة ، أو شاذّة أحياناً ، أو نادرة .. هي أسماء مستعارة .

وحين أتممت الكتابة عن ثلاثين شخصيَّة ؛ أهملت ما كنت أكتبه عن هذه الشخصيّات ، ثم عدت بعد خمسة عشر عاماً من إهمالها ، لأستجر ما كنت أكتبه .

ووجدت أخيراً أن في تدوين هذه الشخصيّات ، بعد تهذيبها أمراً أخذ يدفعني إلى إخراجها في هذا الكتاب .

وقد كنت أيضاً أنسخ مضامين هذه الشخصيات على الآلة الكاتبة .. لأهملها مرة أخرى .. ثم أعود بعد سبع سنوات أستجرّها ، لتتدافع عزيمتي في إرسالها إلى لغوي هو الأستاذ الكريم ــ يوسف عوّاد ــ لتصحيح أخطائها ، شاكراً ومقدّراً جهده النبيل .. يرافقها نموذج من الكتابة بعنوان ــ القصة القصيرة ــ كانت مجلة قافلة الزيت تنشر بعض فصولها ، وكانت تترجم إلى اللغة الإنكليزية .. ووجدت أن فصل هذا الإنتاج الذي تفرّدت بنوعيّة الكتابة فيه عن ــ صور من طبائع النّاس ــ أفضل من ضمّهما في كتاب واحد .

كما أن اهتمام الأستاذ ــ أبو عوّاد ــ بكتاب ــ القصة القصيرة ــ كان أكثر من هذا الكتاب .. إلّا أنني أرجو من الله أن يعينني على إخراجه قريباً إنشاء الله .

كما أرجو من القارىء الكريم ، ألا يؤاخذني حين أستشيط حدّة ، في تعليقي على شخصيّة معينة ، قد أبدو غير مصيب بالحكم عليها ، أو أخلّ في توازن هذا الحكم ، فالكمال لله ، ثمّ لصفوة رسله .

كما يلاحظ أن تواريخ تدوين هذه المواضيع جاء غير منسق .. وذلك لأسباب منها :

١ــ أن في تصوير بعض الطبائع ما يتشابه إلى حد كبير .

٢ــ أو إزدواجيّة وصفيّة قد يشترك فيها بعض الشخصيات إلى حد بعيد .

مما حدا بي إلى رصفها على نمط ما جاء في هذه النسخة .

هذا وأسأل الله أن يهديني إلى سواء السبيل .

المؤلف

فهد قاسم الموسَّر

جديل

رفيقي الجديد جديل[1] ، دميم الوجه ، معقوقد الحاجبين ، قصير القامة ، حادّ الطّباع ، صامتاً ، لا ينبس ببنت شفة في جلسة يقضيها معك ، دون حديث منك حتى ولو تجلسان ساعات طوال .. يصغي إليك ويأخذ منك كل ما تعرض ، غير أنه لا يسلّم بكل ما تقول ، فلربما أن لجديل رأياً خالف فيه النّاس ، أو تشادَّ معهم ، فيتمسّك بما يقول ، حتى لترى أن الحقَّ بيد جديل ، ولو أنَّ ما تملك قبضتاه غير الباطل ، ثم ينفث سموماً إلى الآخرين ، بحجّة ما يدّعي ، وفي صوت إلى النغمة الشجيَّة أقرب منه إلى الغضب .

وهذا ما يألفه النّاس وما يستأنسون به من حديث جديل ، الذي طالما كان ينطلق به ، كان ذلك في حالة اليأس والقنوط من أن يصل إلى نتيجة يدفعها من يتجنّى عليه تطاولاً لنزاعٍ يعكّرُ به[2] صفو جديل ، أو حديث عابر تجلو عنه بعض ساعات جديل فيملي به إلى النّاس ، على وتيرة واحدة لا يخلفها حينما يتحدّث ، تنساق إليه ألباب النّاس عندما يتكلم .. نشيطاً مثابراً ، يداه المغزليتان لصغر حجمهما ، تقبضان على عتلات تأثيرهما قويٌّ فتزيلان الشبهة عن من لا يصدق بما ينتجه جديل من أعمال ، ولا تضحك

فلربما بضحكة تنزلق لتقع في فوّهة فاه جديل ، فيتدرك بوجه كدرٍ[٣] يعبَسُ[٤] حتى لتَرى أنّك توشك أن تقع في خصام معه .

رجل من الرجال الذين قست عليهم الأيام فعالجوا الوقت بالكدّ والجهد ، وعرق الجبين حتى أصبح الاستسلام للصعاب ضرباً منَ ضروب المستحيلات على من هم في شاكلة جديل ، أحببته كثيراً ولطالما كنت أستأنس في الجلوس طويلاً إليه ، إمّا لحاجة أضطرّ إلى أن أقضيها تدفعني ثقتي التي أعلِّقها في هذا الإنسان ، أو لاستشارة أعرضها عليه فيقع رأيه مني موقع الصّواب أحياناً ، يذعن لمن يعتقد فيهم كفاءة حتى ولو خمّن في بعض ما يقولون أو ينصرف لعمله فيشدُّهم تعلقاً برأيه هذا العَنَت[٥] الشديد وبذلك يكسب تأييد الأغلبية في أنه الحكم بالهدف وما ينبغي أن يكون .

قعقعة[٦] من صمتٍ مستكين لا يتناهى إلى آذان من يُشكِّكُ فيه إلّا بمعرفة حقيقية ، تحكم على رفيقي جديل بالغلظة وربما إنك لا تألفه من مجرد نظرة عابرة أو سويعات يستحيل عليك بها أن تتشرب من هذا الإنسان خصالاً تمكِّنك من وصفه ، يتودَّد إليك فيفيض في الإسهاب عن مشاكله ثم يرسل زفرات يعبّر بها في البحث عن حل لمشاكه ، فلا يجد سوى تكرارها مرّات ، فيدفعك للأسى ، ولربما يقبض منك حزناً في ذلك لا يستمر طويلاً فتشاركه أحزانه ، وما يعرض عليك وجدك ، فلطالما سلّم بما تجد من عرض إذا كان في ذلك أملاً يشدُّه إلى تنفيذ ما تقول .

واقعيٌّ في جدله ، منطقيٌّ في قوله ، عبقريٌّ فذٌّ في تمسكه برأيه ، جديل لا يرى الأشياء التي يلحقها بعض النّاس في دور المستحيلات مستحيلاً أبداً ، يُبَسِّطُها لك ولربما أنه يمكِّنك منها أو يفسد فيها عقداً تؤثِّر بمفعولها ، فيبدِّد العصيب حتى ينحَلَّ إلى نقيضٍ ليس للقوّة منه أي مكان .

يُغمض عينيه حينما يسترسل في أحداث يقصُّها عليك فينسِّقها وينمِّقها فتترامى إلى مسامعك شجيَّة موزونةً مقرونةً بنغمةٍ محبَّبةٍ إلى النفس .

جديلٌ الكرم لديه حكر لنفر قليل يرتاح إلى الجلوس إليهم ، وقد تهون سمعة بعضهم إلى النّاس يشيد بموقف يتميَّز به لدى النّاس ، فيسترسله غيره مثنياً إلى جديل صنعاً ، غير أن من يسبر أغواره يحطّ من قدره بين النّاس ولا يثني عليه إلّا بالقبح والإساءة في خلاله .

نرجو من الله أن يستقيم ويعتدل مسيرةً بين النّاس .

طريف في ١٣٩٣/٦/١٠ هـ .

(١) كل الأسماء للشخصيات التي تحدّث عنها المؤلف، وجعلها عناوين موضوعاته هي أسماء مستعارة.
(٢) عكر واعتكر: كرّ وانصرف، واعتكروا: اختلطوا في الحرب، وتعاكروا: تشاجروا في الخصومة.
٣) كدر واكدرّ اكدرارا وتكدّر: نقيض صفا، وكدّره: جعله كدرا.
٤) (يوماً عبوساً) الإنسان ١٠ أي كريهاً تعبسُ منه الوجوه، وتعبّس: تجهَّم وجهه.
(٥) العنت: دخول المشقّة على الإنسان، وكلّفه ما لا يطبق. كأعنته
(٦) القعقعة: صوت السلاح، وصريف الأسنان لشدّة وقعها في الأكل، وتحريك الشيء اليابس الصّلب مع صوت، وصوت الرعد.

دلامــة

رفيقي دلامة هو ما يحلولي أن أضمَّ وصفه إلى وصف بقية الزّملاء الذين عاصرت إقامتهم مدداً على مسرح الحياة ، شاب ينتفض حيويّة ، إنّه مـن الشباب الّذين تتولّد في نفوسهم طاقات خلاّقـة ، وحبّـذا أن يقتـدي بهـم الشباب ، زميلي دلامة كالشمعة التي تحترق لتضيء من حولها ، لتبثّ إلى نفوس الشباب إشعاعاً يقوّي فيهم الاحتمال والصّبر ، أنيقاً في هيكله ، مركّزاً في تصرّفاته ، محبّاً إلى النّاس إن عاشر فلا تعدو معاشرته أخلاقاً أدبيّةً عالية ، مستمدّة من نفسٍ كريمة ، وهمّة نشيطةٍ ، يحبّه الآخرون ، وتراهم يدنون منه ، ويحفلون به ، ويجلّونه ويكبرونه لمزاياه الرفيعة ، دمثاً[1] مرحاً لا ترى أثراً من التّعقيدات على محيّاه ، كما نراهـا فـي كثيـر مـن بقيـة زملائـه ، جشعاً[2] يحبّ المال ، والطّمع أعتقد أنّه مزيّة ليست من شواذ الإنسان ، إنّها خلقت وكما نعلم مجبولةً بطبع هذا الإنسان الذي لو ملك الدّنيا لطلب المزيد ، حكيماً في الصغيرة أو الكبيرة من تصرفاته ، إنه طبيب نفسانيّ على مستوىً عالٍ ، يبادرك التّحية بأوقات اليوم في صوت ساحر عجيب ، ويحبّ المعشر المثالي ، والعشرة التي لا يشوبها تدنّي الخلق .

سليم ، ولو تريد أن تستزيد من وصف صفات زميلي دلامة ؛ لقلت

لك بأن عقله خليط من عقول كثيرةٍ من البشر ، وإن قلت فيه فإن مزاجه يلائم كافة الأمزجة ، إنه كملح الطعام الّذي لا تتلذّذ إلى أكله وتشتهيها ؛ إلّا وتقترن بخليط مناسب منه ، إن عاتب فعتابه موزون بميزان من الذكاء ، والفطنة ، والفهم والإدراك ، وإن انتقد فنقده ليس جارحاً أو مقذعاً ، وإن أطرى فإطراؤه صورة تتجسّد من خلالها أهداف النّقد الأمين النّظيف ، إذا استُعطي أعطى وأسخى في العطاء ، وإن طَلَب فلا يمنع عن حاجة يطلبها حتى من أمسك النّاس . حديثه ، صوته ، أخلاقه ، بيانه سحر يخلب ألباب الآخرين .

خليق بي أن أعجب بشخصيته ، وكيف لا أعجب به ، وهو ممن يعجب به النّاس ، وينال منهم تقديرهم وإكبارهم ، إنّه نوع فريد منهم ، يحبّ الخير إلى كلِّ النَّاس ، ولا يكره الحسد للأقلة منهم ، طبعه طبع البشر ، والبشر ، هذا دأبهم يحبّون ويكرهون ، إذن لا بدَّ أن لدلامة أعداء يكرههم ويمقتهم[٣] ، فهو لا يعير لهم وزناً ولا يخشاهم . أعداؤه ضعفاء واهنون حتى بالحجّة ، والبيان والمنطق ، هذا ما يمتاز به عليهم ، أنه أعلى شأناً ، وأرهب جانباً منهم ، فلعلاقاته مع النّاس والتأثير عليهم ما يجعلها درعاً واقياً يدرأ عنه شرورهم ، ويقيه مكائدهم ودسائسهم . والغريب في الأمر أنهم يذعنون إليه ويفرض سيطرته عليهم ، لا يملكون من قوّة منطقه وحجّته إلّا الانصياع صاغرين لما يمليه عليهم ، فقد كانوا يحاولون أن ينفِّرون النّاس منه بإلقائهم أضواءً باهتةً ضعيفة ، ولكنّ النّاس يميِّزون ويتفرّسون[٤] ، وينتجون بطريقة هذا التّمييز ، وهذه الفراسة حدساً صادقاً في تقييم منازل النّاس . وهكذا استطاع رفيقي دلامة أن يفرض محبّته على الغير ، رفيقي دلامة رغم هذه الصّفات يتمتع بنفس لا تحبّ التّبجّح والغرور ، فلا يظهر إلى النّاس بمظهر المتبجّح[٥] الفخور ويجزئه من اللباس أبسطه ، إن الصغير بعين دلامة كبير ،

ولا يكسر نفس أحد حتى الضّعفاء من النّاس ، يأخذ بخواطرهم ، ويفاتحهم ما بقلبه بلسانه ، بأسلوب إنسانّي لبق ، يشفق عليهم ، وينفق إن استطاع الإنفاق إكراماً منه لهم ، يشاركهم سرّاءهم وضرّاءهم ، ولا يتردد في هذه المشاركة ، يجلّ من هم أكبر منه سنّاً ، ولا ترى دلامة في مكان إلّا وترى أكثر من نفر يجتمعون حوله ، ويتنصتون بشغف إلى لسانه العذب ، وبيانه الخلاب ولا يسلّم على مجموعة إلّا ويدعونه إلى بيوتهم ، فيكرمونه ويعزّونه ، وإذا نطق دلامة أخذت أحاديثه على محمل المجاز ، حتى ولو لم يصب وأقول ليت النّاس كلّهم على شاكلة دلامة ، وليت أخلاق دلامة سرطان يتفشّى في خلايا النّاس ، فليس خطراً عليهم منه ، ولكن جديداً سيطرأ عليهم ، يكسبهم أخلاقاً فاضلة ومزايا رفيعة ، ومثلاً علياً .

الرياض في ١٨/٤/١٣٩٠ هـ .

(١) دَمُثَ: سَهُلَ، ولان، والدّماثة: سهولة الخلق.
(٢) الجشع: شدّة الحرص، وأسوأه من يأخذ نصيبه ويطمع في نصيب غيره.
(٣) يمقتهم: يبغضهم، ونكاح المقت: أن يتزوّج امرأة أبيه بعده.
(٤) تفرّس: تثبّت، ونظر، وأرى الناس أنّه فارس.
(٥) أجزأه: أعطاه نصيبه.

عويمر

ثقة بعزة نفس ، برباطة جأش[1]ومبسم عريض ضاحك ، يتصنّعه عويمر ، يقترن بهذا التصنّع حاجبان عريضان وعينان يصورهما لك في ضحكته ، وكأنّما قلبه بيدك ، تجلس إليه مشتاقاً دون أن يجرحك في تقلّب يتخلّج[2] سريرتك في تكذيب ما ترى ، اجتماعياً ضحوكاً يمزح أغلب أوقاته ، يستأنس إلى النّاس ، ولا يرى فضاضة منه بهم ولو ازدادوا كثرةً ، يوجّه الحديث إلى أحدهم ممن يرتاح إليهم عويمر ، تلك طريقة يعتقد بنفسه أنّها من أنجح الطّرق وبأسلوبه الخاص ، فتشدّ إليه عيون الجماعة، عملياً ممتازاً يدع الجماعة ليتفرّغ إلى العمل ، حينما يُبتدر بسؤال ، أو هو يعبث أحياناً بورقة يؤدّي فيها واجباً منوطاً به في اللحظة التي ينصرف بها عن النّاس ، ثم يعود إليهم جادّاً فيقلب إليك الصورة التي ابتدرها لك في أول وهلة إلى وجه معبوبس محبوب ، لا تكرهه فيه ، أو هو يضفي على حادثة أهمِّية خاصَّة فيسلِّط عليها هالة[3] من المرونة في الحديث فتبدو إليك قصّة تشتاق إلى سماعها ، دون أن تترك منها ثغرة تصرف عنها نظرك أو تغيّبها بصيرتك ، ثم يحكم من وجهة نظره معلّقاً ، معلّلاً مستخلصاً نتيجة تبدو إلى الغير صحيحة تستقيمها منه ، ويتمتم بعضهم دهشةً ، فلقد

استأثروا ببلاغة عويمر حتى عَمِيَت قلوبهم ، عن أن ينتقدوا منه حديثاً ، من أحاديث طوال عراض طالما استمرّ بها عويمر .

عويمر تجتذبه رغبة التّحدّث إلى أولئك الذين يسرفون فيما يتناقض مع العرف ، فهو شغوف بهم ، ميّالٌ إلى جانبهم ، يرتضي منهم قولاً ، يستطردون فيه بالتحدّث في هذا اللون من ضروب الطّرافة ، عويمر شيطانٌ مريدٌ ، ثعلبٌ ماكرٌ فيما يتصرّف به مع النّاس ، يتنكّر إلى الجميل ، حتى ولو تفوّه بمعسول قولٍ يعتقده علاقةً تُفترَض أن تكون وسيلة بينه وبين النّاس ، يعرفه الكثيرون في هذا اللون فيسبّونه ولربما أنهم ينقلون هذه الشتيمة إليه دون أن يثور ، عويمر ربما يعتقد ذلك في نفسه ، فقد تفرّست منه هذه النّفس بالنّاس وعرفت إلى من تتودّد ، خبيرٌ نفسيٌّ ، ولكنّه شديدُ الانتقام ، يضحك حين يمتلك القدرة على الضّحك وقد تلاحظ ببسمته سمّاً زعافاً كأنّما يفرغه ثعبانٌ بلقيطةٍ يقتنصها .

هو عويمر ذلك الشخص الوادع الضاحك الحليم ، في صورة تتقبّلها منه عندما تجلس إليه ، عويمر في الانتقام تتبدّى في وجهه علامات السّخط ، ولكنها لا تأخذك إلى مأخذ تشكّ بأنّه يحذوه بشكيمة[٤] وبقساوة لا تمارسها حتى وحوش البرّية ، عنصريّاً يهزأ بمبادىء الإنسان ويفرغها في معجن الأنانية ، وينقلها إلى مخمر الختال ، فيبدو إلى النّاس ورعاً كريم النّفس معطاءها ، يتودّد إليه النّاس طمعاً في تحصيل حاجة ولكنّه يمسك على ما يملك فلا تخرج عن يده حاجة المحتاج إلّا بالمحال ، منافقاً بطريقة تخفى على كثير من النّاس ، فهو إلى من يحتاجه مرناً يمسك بمقود الطاعة ويتحكّم فكأنما هو والسلامة في نجاح رهان ، ربيع هوى عويمر أن يأمر وأن يطمر[٥] في نفسه كتمان الحق الذي ينعكس به في تصويره إلى النّاس باطل .

يكرّس جهده إلى العمل الدائب ، لا يملّ ويحبّ أن يطوّر العلاقة مع النّاس على أساس البسمة الساخرة ، التي لا تصدر عن قلب مليء بالحب إلى الناس ، يكره الشرّ ، عويمر أحياناً ، حينما لا يجد من الشر وسيلة يحقّق فيها مأرباً وإلّا لفعل يطرق باب الصّعاب تحدّياً منه إليها وينجح في تحقيق هدف منها أو أكثر حينما يرنو إلى جديد محبّب إلى قلبه حتى ولو أسرف بالكذب الهازل ، يؤثر في النّاس ، فببلاغته ، وبأسلوب قدّر له فيه أن ينجح ، استطاع أن يمتلك مبتغاه ممن لا يسلمه إلى الرّاحة والسّكينة ، فعويمر لا يرتبط بحبل بينه وبين البعض إلّا بما يكرهوه ، ولو استهديته إلى طريق أمثل هزأ بك دون أن يوضح معارضة أو نقاش يعطيك فيه ما بقلبه الأغلف ، وعسى ربّي أن يهديه طريقاً سويّاً .

طريف في ١٣٩٢/٨/٧ هـ .

(١) الجأش: رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع، ونفس الإنسان ـــ وجمع جأش لا يهمز.
(٢) تخلّج: اضطرب وتحرّك، وتخالج في صدري شيء: شككت فيه.
(٣) الهالة: دارة القمر، والهلّى كربّى: الفرجة بعد غم.
(٤) الشّكيمة: الأنفة والإنتصار من الظلم، والإباء دون انقياد، وشكمه شكماً: عضّه.
(٥) الطّمر: الدفن، والخبء، والوثوب إلى أسفل، المطمورة: الحفيرة في الأرض.

زعيتـــر

صاحبي هذا يختلف عن بقية زملائه ، بكبر عقله وغزارة ثقافته ، وبحدّة ذكائه العجيب ، والذكاء في رأس زعيتر طوع لسانه الطّويل العريض ، الذي تستطيع أن ترمقه[1] وتصوّره على هذا الإطار من وراء فم واسع ضخم ، إن ضحك أو تحدّث بصوت مجلجل[2] جهور[3] ، يصوغ النّكتة بقالب لا يتكلّفه ولا يجد صعوبة في دقة صنعه لها منطقيٌّ ، يخشاه خصمه ولو هو على حقٍ معه ، لجودة أسلوبه ، ومنطقه الذي ينفذ من خلال فصاحة لسانه العريض الطويل ، ولربما بالطرق الفلسفية وبراهينها ، يستطيع أن يشكّك بالنّاس ، فيقلب لهم الصدق كذباً ، أو الكذب صدقاً ، وهذا ما كان يأخذ من وقتي كثيراً حذراً ، فأقول ربما أن صاحبي كان مختصّاً بالفلسفة ، أو علم البيان ولو أن الحضارة اليونانية هي عصرنا الرّاهن ؛ لا أقطع الشكّ يقيناً مني بأن المذكور ، تتلمذ على يد أحد فلاسفة الإغريق . عالم بالأحداث ، ملمّاً بدوامات[4] عديدة فكأنما هو صهير[5] بوتقتها ، أو ملزماً لتقصّي نظمها وأساليبها ، وأفانين حياتها ، يغرق أحياناً في تأملات شاعريّة وتنتظر طويلاً منه ليقلب لك هذه التأملات إلى نكات طريفة حلوة تضحك منها طويلاً ، ولربما تذكّرتها منه ، وأنت قائم أو قاعد أو مستلقٍ ، فتدفعك إلى ضحك

باهت معتوه[٦] ، قد ينتقده منك الغير ، ولكنك ترجعه إلى صاحبه ، فلا يلومك النّاس ، لأنهم مرّوا بالتّجربة ذاتها مع صاحبنا زعيتر ، ولربما شاركوك الضّحك ، فيقهقهون حتى تملأ مآقيهم فيضاً من دمع مفرح ، ارتاضت نفس زعيتر فسلخت منه الغرور بعلمه وثقافته ، وما يلمحه الكثير منّا نقيضاً لنفس زعيتر ، فعقول بعض النّاس إن كبرت اكتساباً من علم أو ثقافة أو تجربة ، انتفخت وغلظت منهم نفوسهم ، وافترغت من كل قيمة سامية وتجرّدت فلا تخالهم إلّا طُبولاً جوفاء ، أصوات بدون أجسام ولا ينظرون إلى من هم أدنى منهم ، إلّا بنظرات ازدراء واحتقار ، ولا يعيش معهم إلّا كل منافق ختّال[٧] مارق[٨] ، فهم بالحمد والإطراء ينتفخون ، وتتعبأ أوداجهم[٩] فراغاً كبيراً ، ولربما يخف وزن أحدهم غروراً فيغدو كالطّبل صوتاً وخفّة ، همُّهم الرتيب ، الظهور وحب الاستبداد ، والسلطة ، وفرض السيطرة حتى ولو من لا شيء ، إنهم ليسوا أهلاً لتحمّل المسؤوليات ، إنهم صغارٌ وليسوا كباراً ، فالكبير لا يشنف[١٠] أنفه ، ولا تكبر نفسه ، والعظيم يجلّ الآخرين ، فترى من أصالتهم الرئاسة على الرغم من علوّهم ومقدرتهم على ما يستحيل من غيرهم ، ترى منهم نفوساً طيّبةً كريمةً ، لا تنتفخ ، ولا ترتديها حلل الغرور ، علينا أن نروّض[١١] أنفسنا ولا ننظر لمن هم دوننا مستوى ، أقل من هذا المستوى الذي وصلنا إليه ، ونبجح[١٢] قولاً إن هؤلاء ليسوا من مستوانا فنتجنّبهم ، ولا نخالطهم أو ننظر إليهم بعين الرِّضى والاستحسان ، إنهم بشر ، فكلانا ابن لتسعة أشهر ، وكلّنا من آدم ، وآدم من تراب ، ظَلَمت أيها الإنسان إن كنت تعلو بالكبر والغرور ، وتفحش في فهم النّاس لتعلو وتدنس المثل العليا ، التي تتوق إليها نفوس الكرام ، لقد تحدّثت طويلاً ولم أنس صاحبنا زعيتراً .

حريّ بي أن أرتضي منه خصاله ، ولو أن في رفيقي ما يدعو إلى تشاؤمي

منه ، ذلك ما يحصل منه أحياناً ، إنّه يغيب عن عالمه وبتأثير عامل اللا شعور الذي يتبدّى من بعض النّاس آتياً من أعماق جوارحهم ، خارجاً عن إحساسهم ، فصديقي يغضب ، ويرمي البعض بالتّغفيل والغباء ، أو هو يقذفهم بما لا يصيب منهم مقتلاً ، وأتساءل معه هل مسست يا صديقي بنوبة من جنون ، أو أنت ترغب إثارة حقد دفين ، طالما احتفظت به في صدرك ، أو جرح قديم طالما استنزف منك دماً ، أو سقم دوريّ يجيء كلما زادك النّاس إثارة لهذا أو لذاك . رفيقي زعيتر عصبيّ ، ولكنّه سحاب صيف تدوّي رعوده ، ولكن سرعان ما ينقشع[١٣] ، فيهدأ ويعود إلى نكاته الطّريفة الممتعة ، محبّ إلى بعض النّاس ، منافق إلى البعض الآخر ، ونفاق صاحبنا زعيتر من نوع مؤثر ، ينفذ إلى أعماق القلوب ، فهو كالنُّعاس للعين لا تشعر به ولا تتطعّمه ، ولا تدري كيف يدخل فيك ليسلمك إلى النوم والرّاحة ، نفاقه خطير ، والأدهى والأمرّ فيه أنه يدخل إلى بعض النّاس ، فيتقمّصون شخصيته في هذا الضرب وينتحلونها[١٤] ، وذلك ما يبدو عليهم من نقص ظاهر ، فالتّقليد الأعمى أصبح اليوم خطراً جسيماً ، يهدّد الشّعوب ، بعاداتها وتقاليدها ، وقيمها الرّوحية والمادّيّة ، بئس النّاس المقلّدون ، إذا لم ينبع ذلك من أصالتهم ومن قيمهم الرّوحية ، والمادّية ومن مثلهم العليا ، فذلك ما نتّقي به تدنيس طهارتنا وعفافنا ومزايانا الرّفيعة التي ضربت للأمم أسمى معنى للمكارم والأخلاق وأين منّي رفيقي . أسأله تعالى ألا يؤاخذني ، فلربما أغلظت ، أو لم أعدل بحكمي على صاحبي زعيتر .

الرياض في ١٣٩٠/٥/٢٦ هـ .

(١) رمقه : لحظه لحظاً خفيفاً ، ورجل يرموق : ضعيف البصر .
(٢) الجلجلة : التّحريك ، وشدّة الصّوت ، وصوت الرّعد .
(٣) جهور الصّوت : يشتدّ صوته حتى يتباعد ، والصوت ليس بأجشّ ولا أغنّ .
(٤) الدّوّامة في الرّأس : الدّوار .
(٥) الصّهر : الإذابة .
(٦) عته : نقص عقل ، أو فقده .
(٧) ختّال : خدّاع ، والمتخفّي لغرض الانقضاض .
(٨) المرق : الطّعن بالعجلة ، ومرق الطّعام .
(٩) الودج : عرق في العنق .
(١٠) الشّانف : المعرض ، وإنّه لمشانف عنّاً بأنفه : أي رافع أنفه .
(١١) نروّض ، وراض المهر ابن الفرس رياضة ورياضاً : وروّض : ذلّل .
(١٢) تبجّح : فَرِح ، بحجّته .
(١٣) القشع : زوال السّحاب عن وجه السّماء .
(١٤) انتحل : ادّعاه لنفسه وهو لغيره .

ضــرار

ضرار قصير القامة ، جميل الطّلعة ، فتنة من فتن الله على الأرض ، طويل اللسان ، سليطه ، نظراته حـادّة وشرسة ، لا تأتلـف مجموعـة تـودّ التّحـابب ، وضرار وراء ظهرانيهـا ، نقناقـاً[1] ، قـوّالاً ، فاجـراً ، كريمـاً معطاءاً ، تناقضات تعجب منها ، ولربما تسلبك فطنتك ولبّك في التّفكّر بها ، والإمعان بدقائق تناقضاتها ، ثرثاراً ، يبني فوق الحبّة قبّة ، فلا تراه ينول مكوكاً إلّا وينسج على خيط منه حياكة لا يرهص منها قواعد في نسيجه إلّا نقيضاً محلولاً ، يعترض المارّة ، فلا يسلم من لسانه أحد حتى من لا يعترض طرق النّاس ، إنه بعين ضرار كبيراً أو صغيراً ، يتناول رداءه فلا يترك منه خصلة حتى ولو يخمّن ذلك تأويلاً ، فيرفعه وينزله ، ويشتمه ويعرّض به حتى لتشكّ بالنّاس ممن تلفظ أنفاسهم الأخيرة على لسان ضرار ، فلا ترى منهم إلّا صوراً خالية من أيّ معنى إن أنت أطعت انطلاق فوّهات شدقي ضرار ، محراك لكل فتنة ، يثيرها ويوقد أوارها ولربّما أشعلها مؤجَّجة بالنفوس ، فلا تراهـا إلّا جحيماً لا يطاق ، تعجّ نفسه حقداً وضغينةً[2] حتى على أخلص خلصائه ، فهو يرى من النّاس أعداءً كثيرين لا تحصيهم حتى أقلام كتّاب الأرض ، لا يصادق إلّا لغاية ، وهو إن أقبل على نفر من النّاس بشوشاً ، طلقاً ، محبّاً ،

فإنما ذلك ليحقّق غرضاً ما ، يكرمه ويجلّه ولربما انتقل به إطراءً ومدحاً إلى مصافّ المنزّهين عن كل خطيئة ولا يزال يعمر له الأماني في جنان الدنيا والآخرة ، حتى ينبلج لك في اليوم الثاني ساخطاً ناماً ، هادماً كل ما أشاده لذاك ، وبذلك تستطيع أن تستخلص من ضرار في أنه لم يحصل على غايته من رفيقه بالأمس ، أين رفيقي من ضرار بن الأزور (رضي الله عنه) وسخط من هذا وكفى ما أقول فيه ، يغمز كوخز الشياطين وتراه يشير إلى هذا وهو يعني ذاك ... يستتر فلا يباح منه مكنوناً إلّا فضيحة لنفسه بين النّاس ، حتى مُلَّ منهم ، واستثقلوه فلم تعد تجد لضرار صديقاً إلّا نفراً أو يزيد .

ما جِنٌّ[٣] ممقوتٌ ، يهزأ بالغير فلا يسلم من لسانه أحد حتى من يميل إلى جانبهم تحريضاً منه ضد الجانب الآخر ، سرعان ما يتولّى عنهم ويهجرهم ويفتن بينهم ، أو هو يخلق لهم عداوات جديدة ، ولقد أصبح اسم ضرار على ألسن النّاس ، مهذاراً[٤] منبع فتن ، وكثيراً ما يضحكون منه ، لا يهزأون به ، ولكنهم يتعجّبون ، فعلى صغر حجمه ، وقصر قامته جراب مملوء بالفتن والعجائب ، يكرم النّاس وكل مستجد منهم ضيفاً عليهم ، يوقّره ويحترمه حتى إذا ما أمن ذاك جانباً من ضرار ؛ انقلب الفخّ عليه ، وتراه بعد مدّة وجيزة يسبّ ويسخط بالخبيث . فلا يستنكر النّاس منه هذا السبّ والشّتم ، كلّهم يشتمون[٥] بضرار ويمقتونه ويتمنّون لو لم يوجد بين ظهرانيهم ، عينا ضرار ميزان مطفّف ، محتال ، نصّاب ، يغرس بذور الفتنة في الأرض فلا تروق عيناه إلّا وتغمز بما يكرهه الآخرون .

عادة درج عليها ضرار فلا يدعها ولو تديّن ، مظهراً منه للناس يكتفون النّاس منه شراً في إعراضهم عنه واعتزالهم له ، صيّورته[٦] أغلب أوقاته منفرداً منطوياً على نفسه ، ولكنّه لا يستقرّ إلّا بالتطفّل[٧] على جماعة ألفها

أو لم تألف منه خصال ، فيثيرها ويخلف وئامها فلا تراها إلّا على خلاف متواتر مشبوب ، واللهم لا ضرر ولا ضرار .

الرياض في ١٣٩٠/٨/٢٢ هـ .

(١) النّقنقة: صوتُ الضّفادع ، والنّقنقة ترديد الصّوت.
(٢) تضاغنوا واضطغنوا: انطووا على الأحقاد.
(٣) الماجن: من لا يبالي قولاً وفعلاً، وصلب الوجه.
(٤) هذر كلامه: كثر في الخطأ الباطل، والهذر: سقط الكلام.
(٥) شمت: فرح ببليّة الأعداء.
(٦) الصيّورة: الناحية من الأمر.
(٧) التطفّل: لمن كبر سنّة وهبطت تصرّفاته إلى ما يفعله الصّبيان، فيقال طفيلي أو متطفّل.

حسّان

أقدّم لكم لوناً جديداً من ألوان النّاس ، الّذين يكثر مثلهم في المجتمعات بالصّفات ، وبالطّبائع ، والأمزجة[1] ، إنه حسّان ، حسّان زاد على منتصف عمره ، وهو لا يزال يذكر تلك الومضات[2] المشرقة ، التي ارتحلت في سلسلة طويلة من حياته ، وتستطيع تقديرها بربع قرن على وجه التقريب ، أو تزيد ، حسّان يجامل[3] ، وينافق[4] ، ويرائي[5] ويتملّق[6] ، ولكن هذه المزايا يفعلها على وزنها المعتدل ، فلا هو يفرّط فيها ، ولا هو يقتّر[7] ، تصدر منه مثل هذه التصرفات إن كانت المناسبات تدعوه إلى أن يجامل أو ينافق أو يمالق أو يرائي ، تستحسن منه تصرفاً لتسيء إليه بآخر ، إنّه صورة من صور البشر الّذين يصيبون ويخطئون ، ويفعل الشرّ ويتبعه الخير ، أو هو يفعل على العكس من ذلك .

لقد عاصر حسّان عقود حياته فجرّب منها سرّاءها وضرّاءها ، وتذوّق حلوها ومُرَّها ، واختلط مع النّاس وعاشرهم ، وسافر إلى بلدان عدّة أكسبته معرفة بالنّاس ، فهو يستطيع أن يملي لك طبائع شعوب شتّى عربية مسلمة ، ويقتفي لك حتى أثر الوحوش بالبراري ، فهو صيّادٌ ماهرٌ . وممن يولعون بهذه الهواية فيما مضى ، فلا تخفى عليه خافية يجهلها الكثير من غيره ، ولو تقصّيت

منه أسماء شجر البَرِّ لأفاض عليك ، بحيث تحكم أنه لو تعلّم هـذا العلـم ؛ لأوحى إلى العالم بجديد ، لم يعرفه ممن سبقوه بهذا الفن ، ولوصل إلى مصافّ علماء النبات ، نقّادٌ لا تروق إليه تصرّفات الغير ممّا لم يألفها بعد ، شديد الملاحظة ، سمحٌ ، منطلق الوجه والأسارير ، لا يغضب غضباً يستفزُّك منه ، ولا يضحك قهقهة تدنيك من أن تتعرّف بها إلى أدغال صدره ، متّزناً إن أنت تحدّثت معه دفعك إلى أن تصغي لأحاديثه التي لا تستعذبها ولا تنفر منها ، حتى ولو أطال عليك الحديث ، أو استرجع لك الماضي بأفراحه وأتراحه[8] ، يحبّ الغزل والتشبّب ، ولطالما استطرد في مثل هذه الأحاديث التي تشوق[9] أغلب النّاس ، وتستلفت منهم انتباههم ، وإن استجررت حديثاً ترغب تكراره من حسّان ؛ فحسّان لا يتقبّل منك شِذوذك عن قاعدة التّرديد أو التّكرار ، ولا يملّ من نفسه فيتضايق حتى ولو هو على يقين من استماعك إليه قبل هذا الحين ، بل يبدأ لك الحديث وكأنّما هو جديد عليك ، لا يزيد به ولا ينقص منه حرفاً ، همّه أن تتروّى ، وتستوعب منه هذا الحديث ، ومن نقله أمانة هذا الحديث ترديداً ، تحكم عليه بالصّدق والتروّي ، الّذي لا يتوفّر مع بعض النّاس ، يكذّبون ولا يعرف الصدق إلى ألسنتهم سبيلاً ، ولقد يدفعني وأكرّر القول فلربمّا أن الصّدق لدى بعضهم انقضى ، ولم يبق إلا أقلّه ، وكيف لهم بالحديث ، إنّ بعضهم سقماء عقول ، يرون أنَّ إكمال نقص هذا الحديث بالتّلفيق أمر مستحبٌّ ومقبولٌ ، ولكنّه وللأسف الشّديد بدون طعم أو رائحة تعطّره وتشذيه ، حسّان يتحبّب إلى الرائح[10] والغاد[11] ، ولا تنسى أن حسّاناً يسبُّ أحياناً ، فلسانه لا يخلو من الحدّة في الطّعن إن استاء ، ولكن ذلك ليس وتيرةً واحدةً يضرب عليها حتى تملّ منه سماعها ، بل إنّه يخلف النّغم بأوتار كثيرة ، فهو كثير الصّفح[12] يحبُّ المجاملة وبصورها المعتدلة .

وتستوقف حسان صورة فتاة جميلة ، بمجلة أو جريدة ، أو على شاشة

التلفزيون وتحتار كيف توفّق بين ميله الجارف الطّامي ، حيث يرسل الزَّفرات ، ويستنشق متنهّداً متأوّهاً ، وبين شَعر حسّان الطويل وعارضيه ، وسنّه الكبير ، ومبالغته بالتديّن ، لا غضاضة يا رفيقي حسّان في ذلك ، فالقلب جنينة خضراء ، لا تخضلّ اقتتاماً ، ولا يبهت لونها إلّا في حالات المرض أو الإعياء ، وكذلك قلبك المغرور الذي لا يزال يعزف بأوتار حبّه القديم ، ولكن كن على ثقة يا رفيقي أن صورتك وسيماك[١٣] لا تتقبّلها الفتيات ، حتى ولو ترى بنفسك الكفاءة ، وما عليك وعلى كل مؤمن كبُر سنّاً أو صغر إلّا أن يتجنّب أعراض النّاس ، فقد سارت القافلة وقذف بك الرّحل ، فموكب الحياة لست منه بقريب في التشبّب والهيام ، سلّم نفسك إلى بارئها ، ودع عنك تساليك بالترّهات ، ارجع إلى ربك واستغفره ليغفر لك ذنوبك إن شاء ، وإنّه على كل شيء قدير ، لا تعترض سبل المارّة ولا تقذف بالعورات واتّعظ بقول علي «رضي الله عنه» «وكرّم الله وجهه» :

لسانك لا تذكر به عورة امرىءٍ فكلّك عورات وللناس ألسن

واقصد من إسرافك بمثل هذه الأحاديث ، فلربما تعرّض نفسك للنقد وأنت لا تشعر ، أغلب النّاس يا رفيقي لا يحملون غيرهم إلّا بمحمل الظنّ السيّء ، وأسأله تعالى أن يهديك ويوفقك إلى طريق الصواب .

الرياض في ٢/٥/١٣٩٠ هـ .

(١) ومزاج الشّراب: ما يمزج به، ومن البدن: ما ركّب عليه من الطبائع.
(٢) وَمَضَ البرق يَمِضُ ومضاً ووميضاً وومضاناً: لمع خفيفاً.
(٣) وجامله: لم يصفه الإخاء بل ماسحه بالجميل، أو أحسن عشرته.
(٤) ينافق، ونافق في الدِّين: ستر كفره، وأظهر إيمانه.
(٥) رئاء: الزّهاء في رأى العين.
(٦) التّملق والملق: الودّ، واللطف، وأن تعطي باللسان ما ليس في القلب.
(٧) القتر، والتقتير: الرَّمقة من العيش، وقتّر، وأقتر عليهم: ضيّق في النفقة.
(٨) التّرح، محرّكة: الهمّ.
(٩) الشّوق: نزاع النّفس، وحركة الهوى، جمعها أشواق، وقد شاقني حبّها: هاجني كشوّقني.
(١٠) الرائح: الذاهب.
(١١) الغاد: الغادية: السحابة تنشأ مبكرة، واغتدى: بكّر.
(١٢) الصّفح: الجانب، وجمعه: صفاح، وصفح: منع، وأعرض، وترك « عفا عنه ».
(١٣) سمة: علامة، أو أثر.

دجانة

خبلٌ ، ضعيفٌ قويٌ ، مغفّلٌ ، ذكيٌّ ... رأسه دوّامة واسعة من عالم الأفكار الضعيفة ، سقيم العقل ، سليم الجسم ، فهو كالحصان نشاطاً أو هو أقوى ، لا ينظر إلى النّاس إلّا بمنظار مظلم ، يستحسن من عدوِّه قولاً فيصادقه ، ويستكره من صديقه نصيحة فيعاديه ، لا يقبل عذراً إن هو استكره ممن يجادلونه بتقويم اعوجاج فيه ، خبالٌ يضرب أطنابه[1] في رأس دجانة ، فلا تراه متصرِّفاً إلّا كما تفعل الدّجاجة عندما يحين لها البحث عن الغذاء ، فالدّجاجة صورة حيّة للبلاهة[2] في مثل بلاهة دجانة . ضعيف الفكر لا يعي ولا يتعمق في نظره للأمور ، فهو يبسِّطها ويجعلها فراغاً كبيراً يهمله ولا يتفحّص عاقبته ، كثيراً ما كان يملأ هذا الفراغ بالمحاججات ، والنِّقاش الفارغ ، والذي ليس له معنى ، ولو تضحك من نفسك أو تتبادل هذا الضحك مع زميل آخر ، لوجدت امتعاضاً[3] وتلويًّاً[4] في قسمات وجه دجانة ، شكّاً منه في هذا الحديث أو أن هذا الضّحك عليه ، ليس لديه من الثقة في نفسه ما ينبذ عنه هذه الأوهام ، وتلك الشكوك ؛ التي لا تزيد ما بنفسه إلّا تعقيداً وخبالاً ، قويُّ الجسم ولو قدِّر لك انتقاء نخبة من ذوي السّواعد المفتولة ، والأطوال المعتدلة ، والأكتاف العريضة والأرجل الغليظة ، لاخترت دجانة .

أقوى من الخيل ولربما فاق الثيران نشاطاً ، يعارك استعراضاً منه لعضلاته مع الآخرين ، فيمجّون منه شراسة تطاوله ويصقونها ، ولربما تجنّبوا دجانة الذي لا ينفك عنهم إلّا أن تنتهره بلغة يفهمها ، فيرتدع لا يفهم ما يدور حوله ، وإن استمع لا يتناهى إلى عقله إلّا شيءٌ بسيطٌ مما يقوله النّاس ، وذلك يظهر من كثرة تساؤلاته واستفساراته وقطعه لحديث محدِّثه مراراً وتكراراً ، ومن ذلك تدرك أن دجانة في وادٍ ، والنّاس في آخر ، ذكياً عندما يستبد بنفسه اللؤم ، ولكن لؤم دجانة شيءٌ آخر لا تستلطفه منه ، حقودٌ أنانيٌّ ، يحبُّ نفسه حبّاً أعمى ، تضلُّ من دجانة هذه النفس ، فلا تبدو إلّا ضعيفة سقيمة ، والغريب من رفيقي أنّه لا يألف النّاس ، ولا يستأنس بهم ، فكلُّ يوم هو على خصام مع من حوله ، والمحبَّب إلى نفس دجانة ذلك الّذي يضحك عليه أو منه ، فهو خلٌّ[٥] له في الحضر[٦] والسفر[٧] ، وعرف النّاس عقليته فتراهم على خصام مع نفسه المريضة ، التي لا ترى بأساً من التّعريض والتّشهير بها من الآخرين ، أمّا من يخلص إلى دجانة ويرشده وينتقده نقداً نزيهاً أميناً ؛ فيناصبه دجانة العداء ، ولربّما وجم في وجهه أياماً أو أسابيع .

وتعرف امتعاض وغضب دجانة بسرعة متناهية ، يطلب منك إن استكره منك نصيحة لصالحه أن تصمت وألا تكلمه ، عقل دجانة قدّ من صوّان ، فهو لا يفهم ، ولا يدرك ولا يعي ما يقال له ، مغفّلٌ ، خَبَلٌ ، ضعيفٌ ، قويٌّ ، لقد سئمت التّحدّث عنه وأرجو الله أن يقوّمه إلى ما فيه الصّالح .

الرياض في ١٣٩٠/٤/٢٩ هـ .

(١) الطّنب: حبل طويل يشدّ به سرادق البيت، أو الوتد.

(٢) أبله: غافل، أو أحمق لا تمييز له، والقليل الفطنة لمداقّ الأمور، أو من غلبته سلامة الصّدر.

(٣) معض من الأمر، كفرح: غضب، وشقّ عليه، فهو ماعض وأمعضه، ومعّضه تمعيضاً، فامتعض.

(٤) تلوّى: انعطف كالتوى.

(٥) الخلّة: المصادقة، والإخاء.

(٦) الحضر: عكس البدو، ويقال حضريّ، وبدويّ.

(٧) والسّفر: الإنتقال.

أنــور

رفيقي هذا لا يعدو(١) صورة من صور النّاس ، يحبّ العزلة ولا يفضّل الانطواء معتزلاً طيلة يومه ، فهو ممّن يحبّب جانبهم ، ولا يكرهون النّاس كثيراً ، تدنو منه فهو سليم العقل ، يزن تصرّفاته بميزان التّدبير ، فلا هو يسرف في محبّة النّاس فيلقي إليهم ما بقلبه ، ويأمن جانبهم ، ولا يقتصد في محبّتهم ، فنراه يميل إليهم ويدنو منهم كثيراً بمكانة الأخلّة الخلصاء ، حتى أنّ بعضهم يتصرّف بممتلكات أنور البسيطة ، فلا يرى أنور غضاضة في ذلك ، ولربما أنه استزاد من كسب ثقتهم ، فلا يزال يغرس من هذه الثّقة بنفوسهم حتى تظن أنّه جُنَّ تصرُّفاً ، ولكن أنور لعلى يقين تام أنّه حكيم في ذلك ، لأنه أحسن اختياره بهؤلاء والواقع أن تجنّبه علاقة لأغلب النّاس كان كثيراً ما يكسبه صحبة النّاس وتقديرهم ، أنور عالمٌ من علماء الاقتصاد الصّغار ، و لم يكتسب هذا الشخص وفرته معرفة بهذا النوع من أنواع احتياجات البشر عن طريق علمي ، وعلى أساس من العلم صحيح ، بل إن الحاجة كانت دافعاً قويّاً يحثّه(٢) إلى الاستزادة ، من هذه الضرورة ، والتي يتطلّبها كلّ النّاس في حالات اليسر كاحتفاظ منهم على ديمومة هذه الضرورة والإكثار منها ، وفي حالات العسر كنقص في كافّة متطلّبات النّاس حين يلجأون إلى إكمالها ،

أو يتهالكون تفانياً في سبيلها ، زميلي هذا معبوبس الوجه في بعض الحالات ، ولربّما تحكم على أنه متبرّم بالنّاس ساخط عليهم ، لا يعيرهم اهتماماً ، ولا تثيره من النّاس حتى الفصول الأشد إثارة ، والفطنة من جليس أنور تحدّد تصرّفات هذا الإنسان ، إذا أراد أن يسلك طريقاً يحبّب أو يُكَرِّه الدنوّ منه ، فذلك يعرف من الفطين جليّاً واضحاً بعيني أنور ، إن أراد تقبّلاً منه إلى حديثك ؛ أطلق لجفونه العنان والتي تنزل وترتفع بحركة ديناميكية ، ولا تخالها إلّا محرّكاً تسيّره طاقة مولّدة فينتظم سيراً متقناً ، أو نوراً أوتوماتيكياً دقيقاً يطفأ ويلمع بصورة منتظمة ، وهكذا إغماض وفتح عينيه ، وإن مال إلى تكريهك به ، انتابت عيناه تغميضة طويلة قد تدوم أكثر من عشر ثوان ، يفترق فيها جفنا عيناه ، وتلك يستمر بها بين آونة وأخرى ، وهو إن رغب التّحدّث إليك ، أتى لك شاكياً أحواله متندّماً ، وكثيراً ما كان يلعن النّاس ، ويعرّض بالصداقات ، ويحمل أحياناً على الثقة بالنّاس ، ويصفها بالهراء[٣] ، حتى بأخلص الخلصاء ، ولقد صدم أنور في علاقته العائلية ، إذ أنّه سرّح[٤] لزوجته التي كان يحبّها ، ويعلّق آمالاً عظاماً لبناء بيت سعيد ، ترفرف عليه طمأنينة الحياة الزوجيّة ، كان يكثر علينا بالتّحدّث عنها ، وكثيراً ما كان يلصق بنفسه الشّقاء والتعاسة ، ثمّ يسلّم أمره إلى الله ، مكثراً من الدّعاء والتّسبيح ، طالباً أن يوفقه علّه يضرب في الأرض سعياً وراء هذه السعادة ، وأعتقد أن رفيقي أنور مصاب بصدمة نفسيّة ، فتطليقه لزوجته ، وآماله التي ذهبت هباء ؛ يقول أنّها كانت سبباً يهزّه إلى الأسى بأعصاب موتورة ، أنور سليم القلب طيّب النّيّة ، ولكنّه على النّقيض من ذلك إذا ما تذكّر الماضي ، واجترّ شريط حياته اكتتم واعبوبس فلا تراه إلّا غاضباً ، كلفاً[٥] بنفسه مسوِّفاً لها ، لا يفكّر في الحاضر ، وكل همّه ماذا يكسب غداً ، دعك يا رفيقي من الغد ، فالله تعالى أدبر من أن تتدبّر أنت حكماً في الغيب لا يعلمه إلّا هو ، أسلم

نفسك إلى بارئها ، ودع التّسويف إنّه مجلبة للوساوس والقلق ، وكلّنا مثلك ، نسوّف ونريد ، ولكن الله يفعل ما يريد وغالباً ما (تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن)[٦] . أنور لا يعتني بهندامه ، فهو به بسيطاً متقشّفاً ، يحبّ التّجارة ، ويطبّقها حتى في أضيق نطاق على نحو صغير ليقتات بها بعض كمالياته الضروريّة ، ولولا انصرافه بعض الأوقات إلى التّفكير والتّسويف لكان أنور مثالاً رفيعاً للنّشاط والحيوية .

الرياض في ١٣٩٠/٤/٢٨ هـ .

(١) لايعدو: لا يتجاوز.
(٢) يحثّه: يحضّه، ويدفعه.
(٣) الهراء: المنطق الكثير، والفاسد الذي لا نظام له، والكثير الكلام الهذّاء.
(٤) سرّح، وتسريح المرأة: تطليقها، وحلّ الشعر، وإرساله.
(٥) كلف به: أولع به.
(٦) تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن: سار هذا المثل بين الناس على من لا تسير أموره بما يريد.

حجّـب

كبير الرّأس ، ثقيل الفهم ، غليظ العقل ، ماكر ، محتال ، لا يرعى ذمة وليس له عهد ، لا تأمنه على بيضة ، ولو ائتمنته عليها لخانك فيها ، ولحلف وراءها أيماناً غلاظاً[١] ، كذّاباً لا يستقرّ له قرار إلّا بعد الكذب ، ولا يملك من نفسه على إسداء[٢] الجميل إلّا الإنكار ، وعدم الاعتراف به ، غير مكترث ، وإن أنت أسديت له معروفاً وطلبت منه الوفاء ، إن استطاع إنكاره حلف لك أيماناً ، وإن لم يستطع ناصبك العداء ، ضعيفاً ، له رأس كبير ، ولكن هذا الرّأس منه لا يعدو ركيزة جسم فارغ خال من أيِّ قيمة إنسانية أو فكريّة ، لا يدرك كُنه[٣] الأشياء ، ولربما إنّه أساء فهمه بالنّـاس فوصفوه بالحمار دون أن يبادرهم بجواب ، أو دفاع يحقّ له به أن يدرأ هذه الشّبهة ، ولكنّه على علم من ثقل فهمه ، فهو ثقيله وهذا يكفي ، مغرور يمتدح نفسه ، ويسأل النّاس هل هو ذو مكانة بين النّاس ؟ فيضحكون منه ، دون أن يستشفّ[٤] منهم سبباً لضحكهم ، بطبيعة الحال ينتقدون منه بلادة هذا العقل ، وغلاظته ، يشمخ في رأسه ويتفاخر في مكانته ومكانة أبيه بين النّاس ، كذّابٌ أشِر[٥] ، يحبُّه النّاس ، يجلُّونه لماله لا لحسبه ، ولكن ليعلم صاحبي أن المال ليس كل شيء في حياة الأمم إذا خلت من الأخلاق والمثل الرّفيعة ،

ينصب المكائد بمكره وبحيله ليحقق منهم أهدافاً ، ويستلف[٦] منهم وعندما يحين الوفاء يبدأ بالأعذار أو ينكر عليهم ، وطريقته معروفة بين النّاس ، حتى بدأوا يأخذون حذرهم منه ، وأن أتاك شاكياً حاله طلب منك أن تُسِرَّ هذه الشكوى ، وإن نال منك ما يطلبه ، لا يشكر لك فضلاً ، ولا يقدّرك عقب حصوله على هذا المطلب !، بل يتنكّر لك ، وكأنّه لا يعرفك ولكنّه إن وجد منك وجهاً عبوساً ؛ اعتذر لك واعترف لك بهذا الحق مضطرّاً ، لأنّه يخشاك وإلّا لسنَّ[٧] شريعته ، ولربما أنّه اؤتمن فخان أمانته ، معتذراً مختلقاً حججاً بأنها فقدت منه ، أو سقطت في مكان ما ، وإن بحثت ستجد أكثر من شكوى ضد رفيقي ، الغريب من حجيّب أنّه فوق نذالته هذه كلها ؛ يتظاهر بقناعة النفس وباكتفائه ، وبأنّه يمّن على النّاس ولا يمنّون عليه ، ولربّما أيضاً قبض على الدّراهم وألقى بها في وعاء قمامة أو مزق قليلاً ، فيمقته النّاس ، ولكن وجهه بارد لا يخجل ولا يستحي ، ولو شتمته لا يغتاظ ! فهو من أغرب النّاس ، في ساعة الغضب ، حتى إذا كان هناك ما يدعو ويحثّ إلى هـذا الغضب ، أما في البسط والانشراح فلهما معنى آخرفي نفوس النّاس ، تهدأ بها وتستكين ، أما صاحبي هذا فعلى عكس النّاس جميعاً ، يغضب إذا لم يكن هناك سبب يدفعه إلى مثل هذا الغضب ، ويستكين ويهدأ عندما يلقى الإهانات ، والشّتائم إذا كانت معمولة في قالب الجدّ لا الهز ل ، فيصفح عن من يكيل له فيها ويضحك ، فلا تراه إلّا مسروراً ، غريب طبع هذا المخلوق ، وإن رغبت في تقصّي حديثه فتتبّع فصول قصّة ما ، يسردها لك حجيّب وتمعّنها وتفحّصها ، ستجد أنه جالس مع ثلاثة في قهوة ما ، لكنّه سرعان ما ينسى الثلاثة عندما يزوره أحد مفاجأة ، أو يقطع حديثه فيعود لك بالقصّة مفصّماً عقودها ، ويكمّلها على أنّهم الاثنان استقلوا سيّارة ، وتفتقد منه الثالث صاحبي ، نسي صاحبه الأول ، لم يمر بالتجربة حقيقة ، وإلّا لما نسيه ،

ويذكرني بواحد يشبهه في الكذب ، كان يقصّ عليّ رواية مرة في تاريخ حياته كما يقول ، يقول أنه ركب حماراً ليقضي حاجة عند جماعة يبعدون عن هجرته[٨] حوالي اثني عشر كيلو متراً ، وكان يصف ركوبه على الحمار ، فيذكر أنه كان ينتحي جانباً بطريقة ركوبه ، (توريك)[٩] ويقوم هؤلاء الجماعة بإكرامه عند الوصول ، فيذبحون ذبيحة مبالغة له في التّكريم ، ثم يستأذن منهم في العصر ناوياً العودة ... ويقول : قمت ووضعت العنان[١٠] في رأسها ، وبذلك ينقلب الحمار إلى فرس ، لأن العنان للفرس لا للحمار ، لقد نسي صاحبنا الأخير أنه ركب حماراً في الصّباح ، وسيمتطي فرساً في العصر ، وهكذا يستشف الكذب من بعض النّاس ، وكثير في النّاس من هؤلاء ، فمن لم يمر بالتجربة يشكل عليه عدم ترتيبها إن هو تحدّث عنها ، وكرّر هذا الحديث ، والنّاس لا تخفاهم خافية ، وهكذا رفيقي حجيّب يسرد من هذه الأقاويل فيكرّرها ولا ينام إلّا وقد امتلئت جعب[١١] الآخرين منه نقداً وضحكاً واستهتاراً بما يلفّقه[١٢] ويصوّره ، فتراه حديث النّاس في هذا الضّرب من التّدنّي والضّعة ، يسافر إلى بلدان عديدة حتى أوروبا ، زار فيها أشهر بلدانها ولو سألته عن أشهر معالم مدينة ما ، لم يستطع صاحبي أن يؤكد لك حقيقة واحدة ، وبذلك يزعزع الثّقة في نفسك بصدق الحديث ، وتشارك الآخرين بصدق حديثهم عنه لأن ذلك يجلي لك حقيقة ، وليس من ضروب الخيال ، بكذبه وتجرئه على القيم ... لقد أطلت معه، ولكني سأخْتتم حديثي لأصف آخر .

الرياض في ١٣٩٠/٥/٢٢ هـ .

(١) الغلظة: عكس الرّقّة، وغَلْظ الأرض: خشنها، وكذلك في القول وفي الأيمان المكنة بالحل.
(٢) الإسداء: الإمداد بالمعروف.
(٣) كُنْهُ بالضّمّ: جوهر الشيء، وغايته، وقدرُه، ووقته ووجهُهْ.
(٤) استشفَّ: نظر ما وراءَه، وشفَّ الثوّب: رقّ.
(٥) أشِرْ: فَرِحْ.
(٦) السّلف: هو القرض الذي لا منفعة فيه للمقرض، وعلى المقترض ردّه كما أخذه.
(٧) سنّ: الأمر بيّنه.
(٨) الهُجَرْ: مواقع المهاجرون من البادية، والبادي يتحضّر في استقراره بهجرة.
(٩) توريك: وكورّك وتورُّك و ــ الحمار على الأتان: وضع حنكه على قطاتها، والرجل ثنى وركه.
(١٠) العنّة: سير اللجام الذي تمسك به الدّابة.
(١١) الأجعب: البطين الضّعيف العمل.
(١٢) يلفّقه: يلائم أمره، ضم شقّة إلى أخرى من الثّوب وخاطهما.

كــرم

صاحبي هذا إنسان خلوق هادىء الطّبع حسن السّلوك صموت ، لا ينبس ببنت شفة في كلامه إلّا بمستوى فاضل من الأخلاق ، طبعه بارد ، لا يغضب ، قلبه فارغ ، لا يهتم لذا فإنك تراه كالبعير ، ضخماً ، بكرش بارز ، إذا تحدثت إليه يضحك من قلبه ، لا يحقد ديمومة وجوده مجتنباً النّاس ، خيرهم وشرّهم ، طموحاً ، ولذلك فإنك تجده يواصل طيلة يومه ، يقضيه بالمطالعة المفيدة ، وبالدّراسة ، ويبلغ مستوى جيّداً من المعرفة بوقت قصير كله قضاه كلفاً بنفسه ، لا يبرح مكان إلّا ويذكره النّاس بالخير ، ويثنون على خصاله ، وديع ، صادق النيّة ، تغترف من لجين[1] ينبوعه ، غزارة الوئام والمحبّة والسّلام ، ولو كان البشر في القارّات كلّهم على شاكلته لما تفرّد الشرّ بالأمم ، ولما استبدّت بهم أنانيّة الضّمير ، الإنسان وحش كاسر ، إذا لم توجد نظم تحدّ من بطشه ، وتضبط تصرّفاته ، وتكبح جماحه لتفرض عليه حدّة القسر والإجبار ، ولكنّ صاحبنا كرم صورة تختلف عن هذا الإنسان الوحش ، إنّه مَثَلُ الإنسانية وأضيف لو أنَّ الأطماع التي مهّدت لها طرق نظريات الجوبولتكس ، هذه النظريات التي ترى أن الحدود بين الدّول والعالم لا تقف عند حدود معيّنة إذا ما اكتظّت دولة ما بالبشر ، فلها إن استطاعت

التّمدّد حتى عن طريق البطش والإجبار ، إذا ما توفّرت لها سبل القوّة والمنعة ، أقول لو أن سكّانها مَثَلُهم كمَثَل كرم لما آمنت بهذه النظريات ، فنظريات الجوبولتكس الألماني التي أوجدها علماء هذا الضَّرب من العلم ، أدّت بألمانيا إلى سوء العاقبة في الحرب العالمية الثانية ، عندما آمن هتلر بنظرياتهم ، ونفّذها حرفيّاً ، تساعده بذلك اليابان وإيطاليا ، وما تم في ذلك من انتصار الحلفاء عليهم ، ليس هذا موضوع حديثي ، فحديثي ينعلّق بزميلي كرم ، لا يوجد إنسان مثالي ، والإنسان مهما بلغ ، ومهما استقام ومهما نضج عقلاً ، وزاد تجربة فلن يصل إلى درجة الكمال ، وميّز الله الأنبياء لأنهم صفوة[٢] النّاس ، والكمال لله وحده عز وجل ، فله المثل[٣] الأعلى في السموات والأرض ، إذن فصديقي كرم لا يخلو من نقص ، من كسل واستكانة وتقليد ، ويخطىء أحياناً في حكمه على الغير ، وذلك نادراً ما يحصل منه ، يشكُّ في وشاية الواشي[٤] وقد يصدّقها أحياناً دون أن يدقّق أو يتمحّص ، ولربّما أنه ناقش في خطأ وهو لا يعلم ، إذ أنّه يجهل ، وقد يستبدّ به الجهل ويكتم بقلبه الشّكاية ، وكثيراً ما تراه يتألّم ، ويتأمّل ويروي تاريخ حياته ، ولكنه مواضب مثابر على مصلحة نفسه ، لقد تعلّم أكثر من فن ، وسيخرج بنتيجة أفضل منه عمّا كان بالماضي ، تعلّم وتدرّس أساليب يستطيع بتنفيذها إن وفّق ، الحصول على رغباته ، وبها يمكن أن يحقّق آماله ، بسمة لا تفارق شفتي كرم ، ولربّما يكون لها أثر يدنيه[٥] من النّاس أو يكسب بها ثقتهم ، فللناس من النّاس مناظرهم البادية لا الخافية ، والخفي فيهم ، لا تحذق[٦] به معرفة وإلماماً إلّا بالمراس الطّويل، وبالتجارب التي تعتور[٧] أساليبه في حياته من نواحي عدّة عن طريق هاتين يمكنك التّعرّف على خفاياه وتصيب بالحكم إذا ظهر لك من هذه النّوايا ما يتكشّف لك من حقائقه ، إذا أنت تجدُّ طلباً في معرفتها ، وإظهار الغامض منها ، زميلي هذا طموحه محدود ، وهو من أنصار المثل

الذي يقول ، (القناعة كنز لا يفنى) فهو قنوع لا يحفل بنفسه ، ولا يبدو إلى النّاس في بعض إبّهاتهم ، وتزيّنهم بالحلل الأنيقة[8] ، كثيراً ما كان يقول الحقّ ولو على نفسه ، أحببت من كرم أخذه من نفسه لنفسه ، موضع النّقد ، وهذا قلّ أن يتوفر في خصال بعض البشر ، الذين يؤمنون بالمثل الدّارج (كلٌّ بعقله راض ، أمّا بماله فلا) وهكذا أنهي حديثي مع صاحبي كرم .

الرياض في ١٢/٥/١٣٩٠ هـ .

(١) اللّجين: الفضّة.
(٢) صفوة الناس: خيرة الناس.
(٣) و ـــ المثل: الحجّة، والحديث.
(٤) الواشي: السّاعي بالنّميمة.
(٥) دنا: قرب.
(٦) حذق القرآن: تعلّمه كلّه، ومهر فيه، ويوم حذاقه: يوم ختمه للقرآن.
(٧) تعتور أساليبه: تتشبّه بها، أو تنتسب إليها، واعتور: إعترض.
(٨) أنّقه: أتقنه، وأحكمه، والحلل الأنيقة: التي تنال الإعجاب بحسنها وطرافتها.

بلقعة

طويل القامة ، حادّ الطّباع ، حقود بطبعه حتى على كـل النّـاس ، لا يتودّد لأحد إلّا لغاية ، نشيط ، كلّه حيويّة وهمّة ، جبانٌ رعديدٌ لا يتوانى ، ولا يدخل إلى نفسه الفتور ، متوثّب الحركة لا يستكين إلى دعة ، أو تجرفه أضحوكة تلهي غيره ، يتبرّم حتى بمسارح النّاس التي تروِّح[1] عن نفوسهم عناء النصب والإعياء ، همُّه من نفسه فما دون ، ولذلك فإنّك تجد انعكاساً مشرقاً ، لهذا النشاط على محيّا بلقعة ، احمرار وجهه الورديّ وعيناه الحادّتان ، ويقظته باستمرار في كلِّ الأوقات ، ذلك ما يبدو منه جليّاً للناس ، ولكن بلقعة صاحبي هذا خالٍ من أيِّ سلوك حسن يحمده النّاس منه ، أو يأخذونه عنه . عادلاً إن أشكل عليهم ما يسديه بلقعة لهم من خدمة طالما أخذت منه وقته كلّه ، أثنوا إليه جميلاً بهذه العادة ، فهو لا يرائي ولا ينافق حتى لمن يرى منهم النّاس مكانة يقدّرون فيها ، ويجلّونهم بها ، وينافقون إليهم ، ويدنون منهم . ديمومته حركة لا تتوانى ، حتى ولو استلفت بلقعة لأشدّ الفصول إثارة وفي عرض مغري لا يشدّه إليه ، بل كثيراً ما كان ينفر من كل إغراء ملهي على شاكلة هذا . معقّد لا يأنس إلى النّاس ، إلّا كما تأنس للعقارب يخشى منهم ، يقظاً لكل ما يصدر وماله علاقة بنفسه ، ثائراً

متفجّراً أحياناً ضد أحدٍ منهم أو هو على خلاف مع مجموعة لا يأبه بها ، ولربما تجده أحياناً ملطوماً بضربة ينزف منها دمه ، فلا يقوى الدفاع عن نفسه إلّا لساناً طويلاً بارعاً ، يفرقعه بصوت مدوٍّ عالٍ فيقبض عليه النّاس ، ويرجونه ويأخذون بخاطره فلا يرضى منهم ولربّما انفلت انفلاتةً ظنَّ منها النّاس امتهاناً منه لأنفسهم ، فأفلتوه ليتشبّث به واحد أو اثنان راجينه أن يثني عزيمته ، ويتعوّذ من الشيطان الرجيم ، ليصلحوا ذات البين بينه وبين معتد عليه جاني ، فيستسلم لهم ويعود عن غيّه ، فهو بهذا اللسان سليط ، ولربّما نال من ضاربه سهماً يؤثر على سلوكه ،... هذا هو صاحبي بلقعة أحببت فيه انصرافه عن الخمول والاستكانة ، عاملاً نشيطاً ، مدرِّساً ممتازاً في هذا الضّرب من الحيوية ، محاضراً بارعاً طالما أُخِذَ رأيه صواباً ، وعمل به ، ولكنَّه ضعيفٌ خائر القوى واهناً إذا اشتدّت المحن واستوترت الأعصاب ، وهذا ما أمقته منه ، وهذا دأب من يحسنون صياغة الكلام ، هدوءاً أو انفجاراً ، هؤلاء ألسنتهم بارعة ، ولكن قلوبهم فارغة من أيِّ صمود أو ثبات ، وقيل بالمثل (لا تخشى من المياه إلّا الرَّاكد منها العميق) ، وأمّا أمواج البحر على الشاطىء فلا تقذف إلّا زبداً واهناً ، ولو اشتدّت زمجرة[٢] ، وإن سلى بلقعة إلى نفسه ، وأحببت أن تستجرّه حديثاً ، انطلق يهذي بكذبة أو كذبتين ، أو امتدح شخصاً لا يستحقّ المدح ، أو يطعن في شخص لا يستحقُّ إلّا الثناء[٣] بكل طيب ، مغروراً بلقعة أحياناً بنفسه ، جبّاراً يقسو عليها ولا يرحمها ، ولو ولع بها هياماً[٤] . بلقعة لون غريب من ألوان النّاس ، ومن النّاس كثيرون من يشبهون بلقعة بصفاته ، مهذاراً[٥] ، فلطالما أرسل للسانه عناناً بأحاديث تتكشّف إليك مذمومة ممقوتة لا تروق إلّا لفسّاد الأخلاق ، تعجبهم وينصتون إمعاناً[٦] وتقصّياً لمثل هذه السّفاسف[٧] ولأدع صاحبي بلقعة .

الرياض في ١٣٩٠/٧/٢٦ هـ .

(١) الأريحيّ: الواسع الخلق.
(٢) زمجرة: كثرة الصّياح، والصّخب والصّوت.
(٣) و ـــ الثناء: بالفتح والتثنية: وصف بمدح أو ذمّ، أو خاص بالمدح، ويقال قد أثنى أو ثنّي عليه.
(٤) هام يهيم هيما وهيمانا: أحبّ امرأة، والهيم بالكسر: الإبل العطشى، والهُيَّام بالضم والتشديد: هم العشّاق الموسوسون، والهُيام بالضم: كالجنون من العشق.
(٥) مهذار: كثير سقط الكلام.
(٦) و ـــ كأمعن في الأمر: أي أبعد فيه. ومعن الفرس: أبعد.
(٧) سفاسف: الرديىء من كل شيء، والأمر الحقير، ومن الدقيق: ما يرتفع من غباره عند نخله، ومن الشّعر رديئه، وما دقّ من التّراب، وأسفّ: تتبّع مداقّ الأمور، وطلب الأمور الدنيئة.

دويرج

حسن الطلعة ، منفرج الأسارير ، عبوسٌ ، بشوشٌ ... لسانه عذب وحديثه مستطاب مقبول على أعنته[١] ، حتى ولو يزيده تمليحاً من الكذب اللطيف المستهجن[٢] ، جادٌّ فيما يقول إذا تحدَّث ، أو أنصت إلى متحدِّث يلتهم منه ما يقول، يدقِّق ويتمعَّن، ويلتقط الحرف، والكلمة، والجملة، والحديث كله لا ينسى، ويذكر حتى الأحلام يسردها ويرصف أقواله فلا يدع منها ثغرة تخلُّ من وزنها واستقامتها ، أو اعتدالها ، يسعى إلى تنميقها[٣] ثم يزيِّنها وينقِّشها ، حتى لتبدو موضع الإعجاب لدى كثير من النّاس ، يتقبَّلونها بشغف ، ويتدارسونها بشوق ، ويسترسلونها ترديداً لا يملُّ ولا يضاق ، رحابة صدر دويرج من المكان اتِّساعاً بحيث تبتلع ما قد يعجز عنه كثير من النّاس في تقبُّل طبائع النّاس وتجانسهم ، لا تضيق نفسه ولا يتبرّم بمن تملّه الأرض التي هو عليها ، يستوعب حتى من أوحش النّاس أُنسةً ، لا يضحك ولا يبتسم ، وتشعر من ذلك تنفيراً لك منه ، بل تأنس إليه ولا تفضّل منه إلّا أن يبقى متحدّثاً ديمومة منه لهذا الحديث أبداً ، ولو قدِّر لك أن تتعرَّف لهذا القلب الكبير ؛ فلربمّا إنّك تعجز عن أن تحقِّق منالاً بعيداً ، تصل فيه إلى نهاية ما بهذا الصَّدر الرَّحب ، ولو قدِّر لك أيضاً الجدال معه ، لطُحت في هوَّة سحيقة

من الذكاء الفارط ، فلا تنال منه إلّا إعجاباً وإكباراً تقدِّره ، ومن النّاس من يملُّ حديث دويرج فلا يأبه له ، أو يحمله على الظنِّ الحسن ، فدويرج فعلاً (ملكّعاً)[٤] لئيماً من النّاس حينا ، يدور بخلده ما يدور بصاحب الظنِّ السيِّء ، فلا يتركه إلّا وخزاً ولسعاً خفيفين ، بحيث يستثقله هذا من النّاس ولكن أغلبهم محبّباً مرفوعاً ، النّكتة الظريفة الحلوة المنتقاة ؛ لا يتكلّفها دويرج ، ولربما درج النّاس على أن يألفها دويرج في معظم فصول حديثه ، يصنِّفها ولا تنال إعجابه هو ، في حين أنها تستوتر أعصاب جلسائه فلا تراهم إلّا هزّزا حنّيا يقهقهون حتى تسكر منهم هذه الضحكات ، فتخالهم جنّناً .
خلوق دويرج ، دمث في هذه الأخلاق ، ملمٌّ بعادات النّاس وتقاليدهم ينسّقهم درجات ، تميِّزها من حديثه العذب ، يستهزىء في بعضهم أحياناً بأصول لها علاقة في أسس الازدراء ، ويمدح أخرى ويشيِّد ، بارّاً مثنياً في الخير كلّه على غيرهم ، يسعدك نفساً فلا يشتم ولا يسبّ ، ولا يثلم ، ينصت إلى محدِّثه بحواسِّه وبمشاعره وتلك من الصفات ما سمت بدويرج نفساً إليه وتودُّداً وحبّاً منهم ، هؤلاء من يتناقلون سِيَرَه مضَمَّخةً[٥] معبَّقةً[٦] بكل معطار أريج ، تستنشق منها عبير الندى ونسمات كل عليل منعش ، لا يملّ دويرج من المطالعة المفيدة التي يرى منها غذاءً لعقله الكبير وحواسِّه التي تتميز عن غيرها إدراكاً ووعياً يتقبَّل النَّقد دون استسلام فيتقصَّى منه ما يغمض ، حتى إذا ما أدرك المغزى عارض أو وافق على رأي ، دويرج شبه عامِّي ولا ننسبه إلى المثقَّفين ، ولكنَّه بعقل ناضج متكامل يشفق على شبه العامّة ممّن هم على شاكلته ، وكثيراً ما يسارع إلى وعظهم والأخذ بأيديهم إرشاداً منه . يدخل إلى نفوسهم فلا تراهم إلّا عاملين آخذين بنصائحه وعظاته ، أُحبُّ أن أسهب في دويرج حديثاً ولكنني أرى أن أختتم مطافي معه ، أملاً في أن يُتَّخذ دويرج

رائداً لغيره ، أولئك الذين هم على نقيض معه ، ليتهم يستنُّوا طريقه في الحياة لنكبرهم ونقدِّرهم ، ولأدعه .

الرياض في ١٨/٧/١٣٩٠ هـ .

(١) عنّ الشيىء يعنّ ويعنّ عنّاً: إذا ظهر أمامك واعترض، والعنون الدّابة المتقدّمة في السّير، والمعنّ كمسن: من يدخل فيما لا يعنيه، ويعرض في كلّ شيىء

(٢) الهجنة من الكلام: ما يعيبه، وفي العلم: إضاعته، وهجين غير عتيق، والتّهجين، التقبيح.

(٣) نمّقه تنميقاً: حسّنه وزيّنه بالكتابة، ورطب منمّق، أي محسّن بدون نوى.

(٤) اللّكع كصرد: اللئيم، والأحمق، ومن لايتّجه لمنطق ولا غيره.

(٥) الضّمخ: لَطْخُ الجسد بالطّيب حتّى كأنّه يقطر، وانضمخ، واضطمخ، وتضمَّخ: تلطخ به.

(٦) عبق به الطّيب كفرح: لزق به، وامرأة عبقة ورجل عبق: إذا تطيّبا طيباً لم يذهب لأيام.

عُقَيل

يتظاهر بالفهم وهو لا يفهم ، نقناقٌ ، قوّالٌ ، مغتابٌ ، فاجرٌ ، لا يقول قولاً معروفاً ، عيناه تنمّان عن مكر وخداع ، لا يفهم إلّا بما تجري عليه الرِّعاع من فهم ، ولا غاية له من فهمه سوى تفشّي السوء ، واستشراء الضِّعة والانحطاط لا يدعو إلّا إلى السفسفة ، منافقٌ ، مرائي ، متملّقٌ ، كل ضروب اللؤم والخسّة تنبعث من أخلاق عقيل ، أين من عُقَيل عَقلٌ ، إنه بعيد عن تحقيق مزيّة واحدة أو غاية شريفة نستحسن فيها من عقيل صنعاً ، لا ترى عقيل في زاوية من حائط قوّالاً ، إلّا وتراه في الأخرى نامّاً مغتاباً ، يوسوس مثله مثل إبليس ، وهو على نقيض شاكلته ممن يسيرون على نهجه فهو إن تعوَّذت بالله منه ، ووجد منك تمسكاً وإيماناً لاتزعزعه نقنقته وأقاويله ، صدّ عنك ولم يعقِّب ، ولربما استنَّ مسلكاً يلسبك فيه ، ويعرِّض ويشهر بك ، جبانٌ رعديدٌ يدعو إلى تدنّي الأخلاق ، ولا يعبأ بالهدى وطريق الحقِّ ، وإن استصلحته في دعوة بالهداية ، هزَّ رأسه وهَمْهَم[1] ، ثم ولّى بوجهه كأن لم يسمع منك قولاً جميلاً ، لأن ذلك لا يروق بعينيه ، ولكنّك تجد مثيلاً له أو أكثر يجتمعون ويوسوسون ويهمسون في مكان ما ، يلعنه النّاس ، ويكيلون له شتماً وتعريضاً ولكنَّه (وجه أخي فهرة)[2] يتقبَّل منهم ذلك بوجه أصقع من الثَّلج ، لقد

تحطّمت من عقيل أعصابه ، فلا يغضب ، ولا يثيره من النّاس سخط هؤلاء النّاس عليه ، همّه أن يحقّق رغباته في زرع بذور انحطاط الأخلاق وتدنّيها ، أقذر من لسان عقيل ، هندام[٣] وسخ ، النّظافة من الإيمان ، ولكنّها في عقيل قذارة من الشّيطان ، رأس عقيل حلبة يحتدم[٤] فيه صراع ولد إبليس ، فيستعرضون فيه عضلاتهم ، ويملي فصول تطاحنهم به إلى جمهرة أقلّة ، كثيراً ما كانوا يتقبّلون منه حديثاً أو أقلّ يقطعونه عليه ، أو هرج[٥] صاخب يتفجّر أحياناً من حنجرة عقيل ، كالبركان أثارةً[٦] ، وإذا كنت ممن لا يعلمون حقيقته يتبادر إلى ذهنك أن عقيلاً مظومٌ ، وضوضاؤه[٧] الصّاخبة ، إن أنت تقصّيتها لوجدتها ناتجة عن لا شيء ، سوى عللٍ في نفسه ، يعجز عنها أطبّاء النّفس . إنّه آفة من آفات المجتمع التي تحتاج إلى من يكافحها بضراوة ليتخلّص منها كي لا تتوالد وتتكاثر ، فتؤثّر بالحرث والنّسل ، لا يستسيغ عقيل أيَّ حديث يفيد النّاس ، ولا يؤثر في عقيل حتى بلغاء اللغة وسحرة بيانها ، يفهم ما لا يفهمه النّاس ، ويكسر ما يريد النّاس أن يعدلوه ، حريٌّ بي أن أنقل منه بعض ما يجب أن أوضحه لمن يقرأ ، ولكنّي أعجز عن أن أصف دأب عقيل في كل ما يتصرف به قولاً وعملاً ، إدماناً من الشّرّ ، وتجريحاً للفضيلة ، حسبي الله ونعم الوكيل ، لقد استطردت ومحال أن آتي على كل ما أريد ، فرفيقي عقيل قد أثارني وزاد من حقدي عليه ، لدرجة افتقدت فيها السيطرة على أعصابي ، والحقيقة كان عليَّ ألا أصل إلى مثل هذا التّشنُّج الموتور[٨] ، فلربما أن القارىء ينتقدني ، أو يظن بي حدساً يسيء إليَّ ، أو يحطُّ من مكانة الثقة التي طالما كنت أحرص على غرسها بنفسي ، يجدر بي أن أعلِّل ما أقول ، وأحدِّد من لوي اللسان عن الكذب ، بالحقيقة المرّة التي أرى لزاماً عليَّ تسطيرها إنّها حقيقة الخلق ، البشر ، الذين يتباينون[٩] بطرق شتّى في الطّبائع والأمزجة ، منهم من تتقارب أجسامهم ، وتختلف عقولهم ، ومن النّاس ما تتشابه صورهم وتختلف

نفوسهم ، ومنهم من تتقارب فيهم بعض المزايا وليس كلّها ، وهم على تباين من هذه الأجسام ، والعقول ، والصّور والنّفوس ، ومع آخر مطافي وزميلي عُقَيل .. أختتم غيبتي وتعريضي وتشهيري به .. آملاً من الله عز وجل أن يأخذ بيده ويهديه إلى الصِّراط المستقيم .

الرياض في ١٣٩٠/٤/٢٦ هـ .

(١) الهمهمة: الكلام الخفي وتنويم المرأة للطّفل بصوتها ، وتردد الزئير في الصدر من الهمّ.

(٢) (وجه أخي فهرة) مثل عامّ، لشديد الوجه، الذي لا يستحي.

(٣) هندام: بهاء.

(٤) احتدم عليه غيظاً: تحرّك.

(٥) هرج الناس يهرجون: وقعوا في فتنة واختلاط وقتل.

(٦) أثارة: أثر الجرح يبقى بعد البرء، ومداومة الشيء على حركة معيّنة.

(٧) الضّوضى: الجلبة، وأصوات النّاس.

(٨) الموتور: مختلّ الأعصاب، أو من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه.

(٩) تبايناً: تهاجراً، وتخالفاً.

سويف

شابٌّ في مقتبل العمر ، ينتفض حيوية ، ويلتهب نشاطاً ، حبيب إلى الجميع ، لا تراه إلّا مبتسماً ، والبسمة هي كل ما يرتسم دائماً على محيّاه ، مثابرٌ في كل تصرّفاته ، بما يفيد الجميع ، لا يكلُّ فيما يوكل إليه ، داعية إلى النُّصح والإرشاد ، خجول ، ولكنَّ الجدّ فيما ينطق به ويمليه إلى النّاس ؛ تعدمه هذه البسمة ، ولا تذيبه إطلاقاً ، فالنّاس يأخذون من سويف إخلاصه الذي ينبع من قلبه ، فيعملون بقوله ، وحماقة سويف شيء آخر تلك التي كثيراً ما تحزُّ بنفسه فيلقي بها جزافاً ، ولكنَّها ، لا ترتدُّ صدىً يرتاح إليه ، بل تزيده شطَّةً وانطلاقاً في السَّخط ؛ الذي لا يدوم طويلاً ، ويضحكون منه ويصمتون لأنهم عرفوا سريرته ، وتقبّلوا منه الرَّدع على أساس من الفائدة التي يجنونها من تفانيه . يطلق البسمة سويف فتتبدّى وتنبلج عن وجه طلق ضحوك ، يحلو لك أن تراه دائماً على هذه الصورة ، نظيفاً أنيقاً ، بارك به من شاب ، أضف إلى ذلك أنَّه متدين من القلب يحبُّه الجميع ويقدِّرونه ، لأنه معين [1] لهم على بعض مسؤولياتهم التي كثيراً ما تأخذ من سويف جلَّ وقته ، منصرفاً إليها بكل حواسِّه ، لكنَّ العاطفة في سويف تجرِّده من بعض الخشونة التي يجب أن تنطلي بها صبغة الرجل على الإطلاق ، ليس ثَمَّ[2]

ما يدعو إلى الدّهشة ، فلربما أن سويفاً تعرّض لشباك حبٍّ جارفٍ ، طالما كان سبباً في انصرافه إلى الصمت العميق ، صمتاً يهيم فيه وكأنما هو يعبر متاهات المجهول ، وعندما يطبق[٣] عليه هذا التأمل ، يفقده كل مزايا الإحساس ، ويجرِّده من كل الشُّعور ، فتشفق عليه ، وتخشى عليه عواقب هذا الذهول[٤] ، وهذا الشّرود كنت أتساءل معه عمّا إذا كان يجيد الشعر فلم أجد منه تقبّلاً لحديثي ، الذي كنت دائماً ما أستجرّه فيه ، لأنني أميل إلى هذا اللون من الفنون ، والتي تستلزم صياغة وحياكة ، تأخذ من صاحبها مثل هذه التأمُّلات العميقة ، ولعلمي التام بميل الشاعر إلى ضروب الشّعر ، وعندما تحين المناسبة ، أو يذكر فيها اسم الشّعر ، يشوق الشاعر أن يتحدّث بها ، أو يملي من خواطره عنها ، ولكن رفيقي سويفاً لا يتقرّب منها ، ولا ينساق إليها بشغف ، ولا يستلطف منّي أن أستقيم ، أو أجدّ فيه أو أهزل ، ومن هنا تبين لي أن رفيقي ليس بشاعر عندما يتأمل كثيراً ، وبذلك أستطيع الحكم عليه بالوله والهيام ... يقتفي أثر كل مفيد ، ولذلك يصرف جهداً كبيراً من نشاطه لتقليد المستحدث الجديد المفيد ، ممن سبقوه إلى هذا الجديد ، ولكنّه يقلّبه أو يصيغه بقوالب ليبعد الشّكّ عن النّقل والتّقليد ، وهل بذلك يظن أنّه يأتي بجديد ، ليس عيباً عليك يا زميلي أن تنقل أو تقلّد ، ولكن عيباً إن أنت لم تزد ، ولم تضف حواشي[٥] جديدة لكل ما ترغب أن تقلّده أو تنقله حتّى يبدو جديداً في طابع خاص للناس ، ونظريتك التي تتّخذها الآن هي ليست سبباً يعرّضك من النّاس إلى النّقد أو التّشهير ، ولو أنّك تتنقّب بالتّكتّم ، والتّحفظ والصيانة للظُّهور إلى النّاس بمظهر المجدّد عيباً عليك إن أنت لم تقل ، لقد اقتفيت بسيرتي هذه مقتدياً بفلان ، والنّاس يحفظون ذلك بطيب أمانتك ، إن أنت صارحتهم بالحقيقة ، وإنما تقول : أستنبط من عقل لا نقل فهذا ما لا أؤكّد لك تأييده أو يصحبني النّاس في هذا التّأييد .. وإن

أنت أصررت على طريقتك التي تتمشّى على نهجها ، فأنت تصبح بذلك أنانياً ، بل مستبدّاً في أسرارك ، والتي لا تخفى على كلِّ النَّاس وسنّة النّاس أن ينقلوا من النّاس ، ويستزيدوا معرفة ، ثم ينتجون بعد إكثارهم من المعرفة ، ودليلي إليك يا صديقي ، أولئك الذين يدرسون في كبريات جامعات العالم هل ابتدعوا من نقل أو عقل ، أقول وبإيجاز أنّهم نقلوا وعقلوا ، ثم استنتجوا صوراً من هذا النّقل وهذا العقل واستنبطوا أخيراً جديداً ، سما بهم إلى الارتقاء في الناحية العلميّة التي حدّدوا فيها اختصاصهم ، أو استجدّوها ، كحدث جديد في العالم ، وهكذا يا رفيقي مجال البحث والتّقصِّي في العلوم .

الرياض في ١٣٩٠/٤/٢٤ هـ .

(١) معين: ظاهر، جار على وجه الأرض، وسقاء.
(٢) ثمّ: اسم يشار به بمعنى هناك للمكان البعيد، ظرف لا يتصرّف.
(٣) يطبق: يغطّي.
(٤) الذّهول: الترك على عهد، أو الشّغل المُنسّي.
(٥) الحاشية: جانب الثّوب، ومن الكتابة جانب النصّ.

مقبول

صاحبي هذا لون نادر من ألوان النّاس ، بأطـواره وأغـواره وأقولهـا صريحة ، تعجز عن أن توفق بين متناقضاته الكثيرة ، سليم النّيّة طيّب القلب ، غبيٌّ ، لا يحسُّ أحياناً ولا يشعر إلا تسعطه[1] النقد فيثور ، ماجناً خليعـاً ، لا يرعى ولا تأمن جواره ، إنه ليس للعفاف[2] والفضيلة معنى في حياته ، صاحبنا يأتمن جانب الغير ، ولربّما وثق منهم ، و أعطاهم ولكن بعضهم يضحك عليه ، ولربّما أنكر عليه جميل فعله أو خانه بماله ، وهذا ما تكرّر منه أكثر من مرّة ، وإن احتكم الظالم معه ، وأرجع هذا الحكم إلى الله صدّق هذا المخلوق ، سليم النّيّة طيّب القلب غبيّه ، لا يجاهر في المجون بلسانه ؛ ولكنّه يخطّط له ، ويحلّ من نفسه مكان القبول والاستحسان ، ولا تشمئز نفسه منه ، وقل معي وشبِّه ، إن قلنا كالأنعام من هم على شاكلته ، فهذا صحيح ، وتعال معي لننقده من الجانب الآخر ، حيِيٌّ خجول ، ولربما وجل من ظلّه ، فهذا صحيح أيضاً ، صموت جريءٌ ، إن أنت حاولت استفزازه بما لا يرضي ، والنّاس اليوم وفيما سلف لا يخشون إلّا بطش القويّ ، كان هذا البطش عضلات يستعرضها فيهم ، أو لساناً حادّاً يجرّده عليهم ، هذا دأبهم ، وإذا وجدوا ضعيفاً لا يبالون فيـه ولا يخشونـه ولربّمـا آذوه دون

اكتراث ، يعرفونه من ظاهره ولكنَّه إن هو اغتاظ منهم ، وكان قوياً حازماً عندما يلمُّ الغضب يصِفونه بنعوت عدّة ، ويقولون فيه ، ويغضبون عليه ، وهم على هيبة من جانبه ، يصفونه بالعصبية ، أو بالشراسة ، أو بسوء الطّباع ، وبتلك الصّفة يستطيع هو أن يتجنَّب أذاهم ، وقد حصل أكثر من مرّة لهذا السّاكت الصّامت أن يثور ، ويعربد ، فيلقي الشّتائم والطّعن[٣] بالنّاس ، أولئك الأقلّة الذين كانوا يؤذونه في ساعة من ساعات راحته ، فتطير بالنّوم عنه ، فيحقد بادىء ذي بدىء ويسكت عنهم طويلاً ؛ ليجد منهم استمراراً ، وديمومة في هذه اللقاءات التي تطول إسهاباً وتشريحاً للناس ، ويتحدّثون عن ماضيهم وأفعالهم وبطولاتهم ، يقطعون الرؤوس ويركّبونها ، فلا يرى بأساً صاحبنا ، من أن يثور عليهم ، ويصفهم !.. أنتم طول ليلكم تذبحون وتسلخون ، أما تستحون من أنفسكم عناترة[٤] وصناديد[٥] ويردون عليه !.. ماذا تريد منّا ؟.. وماذا تستطيع أن تفعل ؟.. فيهدِّدهم بمن هو أقوى منهم . وما من أولئك النّفر إلا ترك مقبول ، الّذين أساءوا الظّن به عندما حسبوه ضعيفاً ، فيطعنهم بالصّميم على مسمع من النّاس ، لقد استغفلوه في بادىء الأمر ، ولكنّه صبور على أذاهم حتى بلغ منه السَّيل الزّبى ، فاحتدَّ شطّة[٦] وثار ، والرجال على مراتب ، منهم الجمل الذي يحتمل، ويصبر فلا يرغي[٧] ، ومنهم الحاشي[٨] سلالة الجمل ــ الصغير في السن ــ الذي لا يتحمل وإن جُرِّب بالحمل أكثر الرغاء .. وصاحبنا بالرّغم من أنّه مغفَّل فهو صبورٌ إلى حدود يقف عندها ، فتثور منه عصبيته يتقرّب إليه أولئك الذين يحملون الظنَّ السيء ، ويتظاهرون له بالوفاء والودّ ، ولربّما احتاجهم ، فلا يتوانون في تحقيق رغبات واحتياجات مقبول دون تمنُّن أو جزيل شكر منه لهم على حقّ صنيعهم .

ولأدع رفيقي مقبول راجياً أن يقوِّم الله فيه خصال .

الرياض في ١٦/٥/١٣٩٠ هـ .

(١) تسعطه: تدخله في أنفه، فيستسعط.
(٢) العفاف: هو الكّف عما لا يحلّ، ولا يجمل.
(٣) الطّعن: الضّرب، والوخز.
(٤) عناترة: صوت الذّباب، والسّلوك في الشّدائد، والشّجاعة في الحروب.
(٥) صناديد: الدّواهي، وجماعة العسكر، ويوم حامي.
(٦) شطّة: مشقّة، الشطاط والشطاطة: البعد ما بين الطرفين.
(٧) الرّغاء: صوت البعير، والضّبع، والنعام.
(٨) الحاشي: ابن اللبون من الإبل.

عندليب

عندليب وعندليب وجه حبيب ، يسود النّاس بلطفه وبلباقة أسلوبه ، وتلبية طلبات النّاس الذين كثيراً ما يوكلونه في بعض المهمّات التي تخصُّهم ، فهو لا يألو جهداً في تحقيق احتياجاتهم ما استطاع إلى ذلك ، مجتنباً الغير ، محبّاً إلى جميع النّاس ، داعية إلى الخير ، والحبّ والوئام ، نفسه عزيزة ، ومزاياه رفيعة ، وأخلاقه عالية ، بليغ في المنطق والبيان ساحره ، وبذلك يستطيع أن يؤثِّر في الآخرين ، الذين يكثرون من زيارته والتردّد عليه متى شاء ، محقّقين رغبته ، يكلِّفهم في مهمات زملائه فلا يتوانون ولا يكلُّون من كثرة طلباته المتكرِّرة ، وكثيراً ما يتدخَّل مع المسؤولين ، فيرشدهم إلى كل ما هو مفيد ومنوط[1] بمسؤولياتهم ، لقد جرّب المسئولية وعاشها ، متعقِّلاً في كل تصرّفاته ، لا يروق له العمل السيِّء ، ولا يقبله على الغير حتى ولو حاجج وناقش فيه ، وحاول أن ينمّ أو يغتاب فاعليه ولذلك فإنَّك تجد وسوسة وهمساً ، وطعناً برفيقي هذا ، ولربّما وصفوه بالنّميمة والغيبة ، ولكنني معه ، والحق له ، فهو إنسان وقبل كل شيء ، حكيماً في وزنه للأمور ، ورعاً[2] ، حليماً[3] ، قليل التّحدُّث وحديثه مفيد ومؤثر تشرئبُّ[4] إليه أعناق جلسائه عندما يبدؤه ، أو يسهب فيه ولا يملُّونه منه ، ولا ينكرون عليه صمته ، لأنَّه

موزون ، مقرون بالصدق ، والتروِّي ، يسوس النّاس ويعجبه الأقلة منهم ، فتراه مدمناً إلى الجلوس إليهم ، وهناك من يشترك معهم عندليب في بيت واحد ، يتظاهرون إلى النّاس بالسِّيادة والكِبْر المصطنع ، يملّ منهم صاحبي هذا ولا يحاول أن يبادلهم الأحاديث ، وإن سئل منهم أجاب إجابة قصيرة مقتضبة ، وبأسلوبه هذا استطاع أن يفترق معهم في الجلوس ، وفي المزاح والمعشر ، إن دخل عليهم حيّاهم بأجمل تحيَّة ، وبسمة لطيفة يصطنعها ، فلا يبادلونه شؤونه ولا شجونه ، لا سيما وإنَّ منهم من تغلب عليه النَّمنمة والهمس ، يطعنون فيه أحياناً إن اختلوا نجيّاً ، ويمزِّقونه شرَّ ممزّق ، لأنّه يبتعد عنهم ، يبتعد عنهم لأنه عرفهم على حقيقتهم ، حديث صاحبنا عندليب ، يهدف إن حدّث به إلى تقييم الأخلاق على أساس من الفضيلة والعفّة ، يكره كل مجموعة تخبث وتربث في النّاس ، فعندليب عدوٌّ لها ، يكرهها ويمقتها ، ويفرِّق شملها إن استطاع ، ويستطيع ولو بإشارة خفيّة لأنّه عاقل ، وتقبل منه الوشاية على أساس من إدراكه ، لا يقول لا ، إن طلب حتى ولو لم يستطع إلى ذلك فهو ذو نفس عزيزة كريمة ، من أولئك الرَّجال الَّذين يتحمَّلون ، لا يكلُّون ولا يملُّون ، حتى ولو تجلَّطت(٥) جلودهم من الأثقال ، النّـاس كلهم ينظر إليهم عندليب بمنظار واحد لا يفرق بين أحد والعنصرية بعيد عنها كل البعد ، فلا يؤمن بها ولا يرتضيها على نفسه ، متديِّن ، هذَّبته تعاليم الدِّين لكلِّ فضيلة ، فغدى صورة حيّة للمسلم الحقّ . يحبُّه كل النّاس ، ويتودّدون إليه عن أخطائه في العصبية الحادَّة ، إذا غضب ، ولولا عصبيّته الحادّة لكان في أحسن ما يمكن أن يوصف ، محبٌّ لتعميم الفائدة وشيوعها بين النّاس ، وهو إلى ذلك استطاع أن يحقِّق عملاً يفيد فيه ويستفيد ، وبنى صرح هذا العمل على أساس من التّقوى ولو نحسب حساباً لمدخولـه ، لوجدنـا أن المذكور قريب إلى الاكتفاء وبتغطيته النفقات لا غير والرّبح يوزعه فيفيد فيه

القائمين على هذا العمل ، أتخيل فيه كل فضيلة ، تبعده وتنأى به عن الرّذيلة ، يحبُّ المطالعة وكل كتاب له علاقة بتغذية العقول وتقويم النفوس ، ويحبّ الشّعر أيضاً ، فالدّواوين الكثيرة التي يختزنها ، دليل على رغبته لهذا اللون من المعرفة ، أحببت من عندليب صفات جميعها قلّ أن تتوفّر في بعض النّاس ، وتتعلّق بترتيب حياته اليومية ، إنّها نسق رتيب ينظّم منه هذه الحياة ويرهص قواعدها ، ليكون صورة مثالية للمسؤول ، يتبسَّط ثلث الليل الأول ، ويرتاح مستسلماً للنّوم في الثلث الأوسط وفي الثلث الأخير يقوم لصلاة التّسبيح فيصلّي أربع ركعات تدوم ثلث ساعة ثم يقوم إلى عمله ، أعادت بي هذه العادة شريط ذكرياتي في دراسة رجل عظيم من رجال التّاريخ ، قام بتوطيد أركان الدولة العباسية الخليفة الثاني لهذه الدولة تسلّم الخلافة من السّفّاح ، إنّه أبو جعفر المنصور ، هذا الرجل اشتهر بالشّدّة والبأس واليقظة والحزم ، والاهتمام بمصالح الرّعيّة والذي كان يعتبر المؤسس الأول للدولة العباسية وكان يجزِّء وقت الليل والنهار تماماً كما كان يفعل عندليب ، وأرجو لعندليب من الله التوفيق .

الرياض في ١٣٩٠/٥/٢٩ هـ .

(١) منوط: معلّق.
(٢) الورع: التّقوى.
(٣) الحلم: الأناة والتّعقّل.
(٤) اشرأب: مدّ عنقه لينظر، أو رفع رأسه بعلو، أو ارتفع.
(٥) تجلّطت: تكشّطت جلودهم.

دحيم

الاعتدال والاستقامة في النزعات[1] الخيِّرة والشِّرِّيرة كثير في بعض النّاس ، فمنهم من تتوق[2] نفسه إلى الخير أكثر من الشرّ ، وآخرون تتوق نفوسهم إلى الشرّ أكثر من الخير ، والباقون نقطة ارتكاز لا أولئك ولا هؤلاء ، ورفيقنا دحيم صورة من صور الضَّرب[3] المتوسط ، له لسان سليط[4] يقطع الرؤوس ، ولكن ذلك لا يعدو قطع كلام ، فكأنّما هو يقدّه من بيان مسحور إلّا القليل النّادر ، فتراه يتعاشر مع معشر من النّاس ويحسن من هذه العشرة تلطُّفاً في كسب ثقتهم فيه ، ويتطاول أحياناً على هؤلاء الأقلّة ، ولكنَّ لقاءه المرح العذب[5] يضفي عليه لوناً يدخل إلى نفوسهم ، ويتحبّبون إليه ، ويبادلونه العشرة ، وتراهم فريقين يمثّل أحدهما هو نفسه ، والفريق الآخر بهم جميعاً ويتصدّى لهم إن أغلظوا العشرة بلسانه ، وربما أثقل ، وما يعدو ذلك منهم ومنه إلّا من قبيل المزاح ، لا يفكّر همه أن يقضي يومه مرحاً معهم ، وينتقد الآخرون ، ممن تتعقَّد نفوسهم بعض الأوقات ، ويصف هؤلاء عيباً منه ، وأنّهم من بناة العروش فوق الأفلاك ، فهم ينمِّقون ذلك في أخيلتهم ، فينسجون الأوهام حين يحلُّون لأنفسهم فرش الأزاهير ، فلا ترى منهم في عين دحيم إلّا سقطاً سفسفاً ، لا يقدّرهم ولا ينظر إليهم في عين الاعتبار ،

يُعْجَبُ من أولئك الذين لا يفكِّرون في يومهم إلّا في مليء بطونهم ، أحدهم في نظره إن شبع ، انتعش وانطلق مخاطباً منقنقاً ، يحبُّ النِّفاق والنَّميمة ، ويجلس إلى هذه النَّميمة ، وهذا النِّفاق ، أمّا إذا استمر في النقد فيضرب هذا ويعرّض لذاك ، ويغلظ في فهمه للنّاس ، قوّالاً يجور[٦] على الغير ، ويقذع[٧] في ذمّهم ، وإن أنصتَّ إليه ، واستعدت بذاكرتك حلقات حديثه ، التي تربو على العشر مرات في اليوم ، تتصوّر المنافقين الدّجّالين ، الذين لا تهوى منهم أفئدتهم إلّا استفزاز[٨] مواطن الشرور والمكائد ، للإيقاع بالنّاس ، لا تذكر دحيماً بالخير ، ولا ترجو له الصّلاح والتّوفيق إن أنت دعوت ، في لحظة السّخط منك عليه ، ولكنّك تطلب من الله خيراً ، أن يقوِّم من دحيم أخلاقاً ومزايا ، تصلح بها نفسه ، لاسيّما وأنك تلاحظ منه على الدوام محافظة على عقيدته ودينه ، فهو صالح العمل بينه وبين ربّه في أداء الفريضة ، والإكثار من السنّة والتنفّل والتهجُّد، ولكنه طالح الفعل فيما بينه وبين بعض النّاس ، دحّيم شرّ ولكنّ الله سبحانه وتعالى ألهمه الركون إلى القلَّة من النّاس ، وإلّا لاستشرى[٩] بينهم الحقد ، ولاشتعلت منهم البغضاء ، فلا يطفئها أقدر النّاس حلماً ، ولربما حصل ذلك منه أكثر من مرّة ، هذا على النطاق الواسع ، ولكن على النّطاق الضَّيق ، كم من حزمة فلَّها[١٠] دحيم بسهولة وببساطة ، وكم من صديقين على وفاق هذا اليوم ، فتراهم من الغد الباكر متفارقين ، لا يسلمون على بعضهم إلّا بوجوه واجمة غاضبة ، بعد أن تدخَّل معهم رجل من الأبالسة ، فبدّد وئامهم وتآلفهم إنّه دحيم ، كيف أوفِّق بين قيام دحيم ثلث الليل ، مصلّياً متهجِّداً ، داعياً ، متضرِّعاً ، وبين وشوشته وطلاقة لسانه في النَّقنقة والنَّميمة ، والتي تؤول بالأصدقاء إلى خدوش وجروح عميقة تشقّقت على يد وبسكِّين دحيم ، يستَلُّ هذا السِّكين ولا يروق ، ولا يهدأ إلّا ويجرح أو يخدش ، فيعمِّق هذا الجرح أو يزيد بذلك الخدش ، ولربما

إنّه إن علم بوفاق اثنين من أولئك الذين أوجد بهم هذه الشقوق وتبصّر ليتأكّد له وئام هذه الجروح ، لا يسكت إطلاقاً دحيم ، فلربما أثار أحقادهم وأحيى جروحهم من جديد ، لتدوم الفتنة ، فيرتاح نفساً ، ويهدأ بالاً ، دحيم ربما دخل في العقد الخامس من عمره أو قارب نصيفته ، إلّا إنَّه محِبّاً للّهو ، لا تجده في معظم فراغه إلّا لاهياً ، يلعب في ضرب من اللهو لا يغيّره ولا يملُّ منه معظم أوقاته في الفراغ يرتاح منه النّاس لانشغاله في هذا اللهو ولأترك رفيقي دحيم .

الرياض في ١٣٩٠/٥/٢٤ هـ .

(١) نزعات جمع نزاعة: ما يرجع إليه الرجل من أمره أو رأيه.
(٢) تاق: اشتاق.
(٣) الضّرب: المثل، والرجل الماضي النّدب، والخفيف اللحم، والنّتف من الشيء.
(٤) السّليط: الشّديد، واللسان الطّويل، والطّويل اللسان.
(٥) العذب، من الطعام والشراب: كل مستساغ، ومن الحديث ما طاب سماعه.
(٦) الجور: نقيض العدل.
(٧) القذع: الخنا، والفحش، والقذر.
(٨) استفزّه: استخفّ به، وأخرجه من داره، وأزعجه.
(٩) الشّرى: بثور صغار حمر حكّاكة مكربة، تحدث دفعة واحدة، واسمها الحديث حساسيّة الجلد، استشرى: عم واشتمل، وشرى الشرّ بينهم: استطار.
(١٠) فلّه، و ــ فلّله: ثلمه، فتفلّل، وانفلّ، وافتلّ، والقوم: هزمهم، وقوم فلّ: منهزمون.

عبيد

رفيقي هذا ، يكتفي منه النّاس خيراً وشراً ، لا يضحك إلّا تصنّعاً[1] ، قليل الحديث وحتى لو تُسلّم عليه فلربما اقتصد ـــ بعليكم ـــ دون أن يكمل رد السّلام أو يهز رأسه، يحبُّ الكسل ، يبتسم أحياناً دون أن تعرف مصدراً لهذه البسمة بعيون تحملق[2] بالنّاس شارداً بفكره ، يدقّق بقسماتهم وكأنّما هم وجوه الشياطين ، وإن أنت دقّقت حينما ينظر إليهم بإمعان[3] مجيلاً نظره من وجه إلى آخر ، خشيت على صاحبنا من الانطلاق فارّاً عن وجوههم ، ولكن يغمض فيه هاتين العينين ، ويطأطىء[4] رأسه حتى ليبدو لك أنّه منهمك[5] في قراءةٍ ، دون كتاب ، أو هو يسترجع محفوظاته القديمة ، أو جزءاً من القرآن وذلك منه دون تحريك شفتاه ، أو حركات لا شعورية فهو يضبط نفسه ، ولو أنه في دوّامة بعيدة عن العالم المحسوس حوله ، ولكن النُّعاس يسلمه إلى النوم فيضطجع ، ولا تمضي لحظات إلّا وصاحبنا يغطّ في نوم عميق ، لا يستيقظ إلّا بإلحاح من صاحب له يتولّى إيقاظه كل صباح ، يتعب صاحبنا الأخير الذي يغلظ عليه في النداء أو يمسك بيده أو رأسه فلا يستطيع أن يأخذ من عبيد حقّاً ولا باطلاً في إثارة نبهته من النّوم ، ولربما أحياناً يمسك في شعر رأسه شادّاً ، مقتطعاً شعرة من هذا الرأس أو يزيد ،

حتى يأن[٦] لصاحبنا الصّحو واليقظة ، وغالباً ما يتململ[٧] فينتبه ليعود إلى النّوم مرة أخرى ، فيذهب صاحبه غاضباً منه ، مستاءاً من طريقته في النوم ، وعندما يحضر عبيد من العمل يقضي وقتاً قصيراً عند أناس يرتاح إليهم ، فيتحدّث معهم حديثاً قصيراً ، والأحاديث لا تعدو أسئلة منهم ، يجيب عليها عبيد ، يضحك أحياناً ضحكةً باهتةً لا معنى لها ، ولكن الجميل ما فيه هو أنّه كافٍ النّاس خيرَهُ وشَرّه ، رفيقنا لا يخلو من عجز في تركيبه ، فهو ميّال إلى تقمّص[٨] وانتحال[٩] شخصيات الغير ، لأنّ ذلك يبدو جليّاً من تخبّطه ، وعدم تركيز تصرّفاته وسلوكه مع النّاس ، وتصوير نفسه بمظهر الوقور حيناً ، ويرجع إلى عادته في الصّمت الرّهيب أحياناً ، صمته الذي يذهب بك بعيداً فتفزع وتخشى انطلاق رفيقي هذا وفراره كما ذكرت ، تتودَّد إليه وتحبّ أن تسبر منه أغوار هذه النَّفس المعقَّدة ، فلا تستطيع أن تصل إلى ما تريد ، لأنه لا يشعرك باللين في أسلوبه هذا ، يقابلك ببسمة باهتة ثم يجيب على أسئلة ، وكثيراً ما تكون أجوبته قصيرة ومقتضبة[١٠] ، غير أن الأمرَّ من هذا أنه يتركك في مكانك لينتقل إلى زاوية أخرى غير الزاوية التي كنت تجلس معه فيها ، إن أنت أطلت الجلوس أكثر من خمس دقائق ، أو هو يتلهّى بشيء يبتعد عنك فيه حتى ولو يتحجّج بأي شيء ما ، ولكن ذلك لا ينطلي على من يتعرّف على دقائقه ، ويتمرّس[١١] بما اعتاده ، لا بأس بحياته المادّية ... ونظرته إلى الأمور من حيث تقديره لصواب النتائج ، فقد استطاع أن يؤثّر على مجموعة من النّاس وشرع لهم بماله عما ينفعه وينفعهم ، ولو أنّني ذهبت برفيقي إلى مذهب سيّء ، ولكنني أعود لأتذكّر منه حسناته ، فهذه من حسناته ، لقد استطاع أن يبذل من ماله مشروعاً مفيداً كلّفه تنفيذه دفعاً ، وأثمر والنّاس كل النّاس إن أنت استعرضت منهم ألسنتهم وقلوبهم ، وعقولهم لوجدت منهم من يقول ولا يفعل ، ومنهم من يفعل ولا يقول ، ومنهم من

يقول ويفعل ، ومنهم من يدرك ما لا يقول ، ومنهم من يقول ما لا يدرك ، ومنهم من يدرك ويقول تدفعهم عقولهم إلى ما ينبغي فيه أن يُنْقَد أي ما يكلّف كالمادة مثلاً ، رفيقي من أولئك وهؤلاء ، يدرك ويفعل ما لا يقول ، ولكنه يغرق نفسه بالتخيّلات والتّصورات البعيدة عن عالم الواقع ، تحبّه لأفكاره النشيطة ، والتي ينفّذها فعلاً ، وتكرهه بتصوّراته ، بأسلوبه وبعلاقته مع النّاس ، لا تجده يوماً من الأيام في وئام وانسجام مع أحد أبداً ، إلّا وحيداً منفرداً حتى ولو يجلس إلى أناس لا ينفر منهم ، ولندع رفيقي هذا لآخر .

الرياض في ٢/٦/١٣٩٠ هـ .

(١) التّصنّع: تكلّف حسن السّمتة، والتّزين.
(٢) حملق: فتح عينيه، ونظر شديداً.
(٣) أمعن في الأمر: بعد فيه، وغاب في أقصاه.
(٤) طأطأ رأسه: طامنه، وخفّضه.
(٥) همكه في الأمر فانهمك وتهمّك: لجّجه فلجّ، واهماكّ: امتلأ غضباً.
(٦) يأن: يأت الوقت، كقوله تعالى (الم يأن للّذين آمنو أن تخشع قلوبهم) يونس ٣٧.
(٧) تململ: أسرع في تغيير اضطجاعه.
(٨) تقمّص: لبس قميص غيره، وانتحل عادة أو شكل غيره.
(٩) انتحله: ادّعاه لنفسه وهو حقّ لغيره.
(١٠) مقتضب : مقطّع، ورجل قضّابة: مقطّع للأمور .
(١١) تمرّس: احتكّ به .

مبــروك

قزمٌ ، بهلوانيٌّ[1] ، مرحٌ ، لا يخلد إلى الرّاحة إلّا متشبثاً بأناس تعدُّهم على أصابعك يداعبهم متطفّلاً في هذه المداعبة ، أو هو يقرن المداعبة بجدٍّ هازلٍ لا يتحدّث إلّا قليلاً ، ولا يركن إلى الخمول إطلاقاً ، يجترع المرّة والحلوة من النّاس فلا تراه إلّا ضاحكاً ويعييك[2] التأمّل حين تعجز عن أن تجد ساعة يعكَّرُ بها وجه مبروك ، ويفاجىء النّاس في أحداث تستلفت منهم انتباههم ، أويختلق مستجدّاً عليهم ، يدهشهم ذلك صائغاً للمفاجآت التي يخلطها تارة فتخالها أكذوبة متقنة لوجه الصدق ، وتتبين لك أخيراً أصدوقة موشّاة[3] بلون من ألوان الكذب ، يقبل على النّاس منصتاً مستوحياً وكأنما هو يستمد وحياً من جانب آخر ، ذلك منه قبل أن يفاجىء النّاس وكم كنت أتساءل مع نفسي في أشباه مبروك من الحيوانات فلم أجد ما يلائمه غير أرنب أهلي ، استدارة وجهه ، وعيناه الواسعتان ، وإنصاته إطراقاً ، شفتاه المتعجرفتان ، منخراه المتوثبتان شهيقاً وزفيراً ، كل ذلك تخميناً مني وتشبيهاً له بهذا الحيوان ، حرك دون وزن منه لهذه الحركة ، يستقصي ما يلتبس على النّاس فيحيِّرهم ، ذكيّاً ، لا كأرنب تستبدُّ به البلاهة ، فلا يستقبل أو يستدبر أمره إلّا فراراً ، يبيع ويشتري في تجارة الإفلاس ، فلا تراه في يوم من الأيام

في غنًى عنهم ، يستدرُّهم[٤] ويحلو لهم ذلك ويروق منه ، فينفعوه ولا يرون غضاضةً من مدِّ يد المساعدة له متى شاء ، يضحك عليهم ، ولكنه لا يزدري منهم أحداً بل يحفظ الودّ ، ويفي بالوعد ، مبروك يحفلون به ، ويستهجنون منه أحاديثه ، يمازحهم ، عشرته قصيرة ولا تدوم ، وإذا استمرّ بها اجترارا حيناً ، يسخط ويسبّ ويشتم ، وينفر منهم ، حتى لو يحبلون له المصائد ، لئيماً أحياناً ، ويتقبَّل الوشاية بصدر رحب ، ويصدِّق ما يقال ، ليناصب العداء بعض أخلّته ، فيتبرّم بهم ويكرههم ولربما استشعروا منه ذلك ، فقذفوا بصداقته وصدّوا بوجوههم عنه إن أقبل ليعيد الكرّة مرة أخرى محاولة منه في وصل الصداقة التي تربطه بهم بعد جفاء ، فيجاملوه كذباً وخداعاً وهم على حذر بعد تجربة أو أكثر مرّت افتعلها مبروك ، يعرف من نفسه إلى النّاس ، نفاقاً وإسرافاً في المجاملة ، وكثير من النّاس جدّاً من لا يصيبون في مثل هذا الحدس ، عندما يأمنون جانب المنافقين ، فالمنافق لا يحفظ ودّ النّاس إليه إلّا تخميناً منه أنّ هذا الودّ جاء نتيجة لتلاعبه بعواطفهم أو عقولهم فيما يرضيهم دونما إيمان منه بإخلاص أو توادد يفتقر الصِّدق في المعاملة وهم أيضاً لا يحفظون السِّر ولا يفون بالوعد ويخونون الأمانة ، يقرضون النّاس قرضاً سيئاً ، فلا يرون منهم المغفَّلين إلّا أكفّاء ، حريصين ، وهم على نقيض الظنّ الحسن ، يأنسون إلى بعضهم فيشهرون بأعراض النّاس أو يتقوّلون[٥] عليهم الأقاويل ، التزامهم الكذب المطلق ، وديمومتهم الفتن فيما بين النّاس وبكل ما أرتضي قولاً ذلك من معنى ، في المعاملات الجارية بينهم ، أو في علاقاتهم ضمناً وانتشاراً ، أولئك هم شرّ البريّة ، ليتهم لم يخلقوا على الأرض لتسلم من أذاهم المخلوقات ، زميلي مبروك ليس منهم على الإطلاق ، ولكنّه ينحو نحوهم في وقت ، ويعتدل في ترك أساليبهم في آخر ، وإنّني لأدعو له منفّراً لغيره هذه العادات السيئة ، سائلاً الله تعالى أن يوفّق مبروك إلى سواء السبيل .

الرياض في ١٣٩٠/٨/٥ هـ .

(١) و ــ البهلول، كسرسور: الضحّاك، والسيّد الجامع لكل خير.
(٢) و ــ يعييك: يتعبك، أو من لم تهتد لوجه مراده، أو لم تطق أحكامه، أو ما تعجز عنه.
(٣) الوشي: نقش الثّوب في عدة ألوان، ووشّى الثوب: نمنمه، وحسّنه، ونقشه. ومن السيف، فرنده.
(٤) الدّرّة: التي يضرب بها، والدّم، وسيلان اللبن، وكثرته، وبالضّم: اللؤلؤة العظيمة.
(٥) وتقوّل قولاً: ابتدعه كذباً، وقوّالّة، وتقوالة، ومقول، ومقوال، وقولة: حسن القول، أو كثيره، لَسِنْ.

سميح

سميح خلوقٌ حيٌّ ، جميل الطلعة ، حسن الصّفات ، باسم ، لا يطيل الضحك ولو أعجب بالطّرائف[1] والنّوادر ، يمسك من نفسه لنفسه ، فلا يتوانى بخدمة جلسائه خفيف الدّم ، وهم إلى ذلك يوقّرونه ويجلّون به صفاته ، فلا تراهم إلّا محتفين به شادّين من أزره[2] كعامل له مكانته بينهم فلطالما أوفدوه عنهم ، يتكلم باسمهم ، ويقول كلمته فلا يتلقّاها غيره إلّا جادة مقبولة ، ينصح الآخرين ، بما يلقى استحساناً ، واستحباباً وقبولاً من خاصة النّاس وعامّتهم ، وهو إلى ذلك صورة مشرقة للإنسان النّاضج ، كثيرٌ من عذّال النّاس ما يتناولون سميح بألسنتهم نقداً أحياناً ، وتجريحاً أخرى ، ولكن سميح يشيح بوجهه عنهم فلا يعيرهم اهتماماً ، ولا يتقبَّل من المنافقين أقوالاً ، متسامحٌ لا يعرف الحقد إلى صدره سبيلاً ، نجواه طلاوة[4] الحديث وعذبه حتّى لو انتقد ممّن يعرّضون أنفسهم إلى النّقد ، فهو لا يفحش ولا يقذع ، ويرى أن البشر خلقوا صغاراً ، وليسوا كباراً ، وناقصون يعوزهم التّقويم في الكمال ، فلا يتم هذا الكمال إلّا ما شاء الله ، يبعد نفسه عن الشّبهات ويبغِّضها إلى الآخرين في كل سلوك ، مرشداً ، داعية إلى كل خير وفلاح ، رفيقي سميح يفتقر إلى الجدّية المجبولة في الحزم ، تنقصه وهو يعلم وبقرارة نفسه

أنه بحاجة إليها ، ولكنّ الطّبع يغلب التّطبّع ، والتّصنّع لا يدوم لمن ينتحله ، بالرغم من أن سميحاً باسمٌ دائماً إلّا أن بسمته باهتة لا معنى لها غالباً ، خجولٌ والحياء فيه يغلبه في كل المناسبات ، حتى منها ما لا يستحق مثل هذا اللون من الصّفات ، ولذلك فإنّك ترى برودة وذبولة في معنى أحاديثه ، إلّا أنه من الناحية الأخرى برشاقته[٥] ، ولطافة حركته وخدمته التي يسديها إلى الغير ، محببة منه إليهم ومقبولة ، يدعم ذلك بصفاء نيّته ووئامه وسلامه مع النّاس ، وأضيف إلى سميح خصلةً[٦] لا أحب أن تكون فيه ، رعديداً جباناً عن مواجهة بعض ضروب المواجهة ، يغلب عليه الحياء فلا تعرف الجدّية والحزم إليه سبيلاً ، ولذلك فإن كلمة سميح لا تعدو إيماناً منه بنفسه دون أن تلقى قبولاً واستحساناً على الإطلاق ، أو رأي مصيب ، ويكتفي منه النّاس أنّهم يصفوه بابن الحلال ، الطيِّب القلب ، طيّب القلب من النّاس إذا استفحل عليه الحياء ، أو استشرى لدرجة لا تطاق ، نعتوه بالألقاب فهو ضعيف عندهم يستهجنون منه الآراء ، فلا تؤخذ ، ولا تقبل حتى ولو أصاب .

مصيبون هم في ناحية ، ولكنّهم يخطئون من الناحية الأخرى ، وبذلك فالحلّة[٧] التي كان يلبسها سميح من النّاس هي مجرّد الوقار لخلقه ولوزنه للأمور بميزانه الخاص ، الذي يرجح كفّةً عند جماعته والمقرّبين إليه . لم تدع الأيام سميحاً دون تجارب ، فقد مرّت عليه سنون أكسبته خبرات عدّة فصقلت منه نفسه ، وبلورت[٨] فيه مداركه ، ولم يعد مثله في اليوم كقافيته بالأمس ، يأخذ أموره بالبساطة فلا يتسرّع ولا يتوانى كل المواناة . فهو بين بين ، كريمٌ ، معطاءٌ ، لا يبخل على نفسه ، ويمسك منه يداً عن الآخرين إذا سُئِل أجاب ، وإذا استجدى أعطي ، وإذا سأل نال ما يطلب في حدود الإمكانيّات ممّن يثق منهم أو يفشي إليهم بمكنونه ، وإجمالاً فزميلي سميح

وقورٌ ، يجلُّه النّاس لخلاله الطيّبة ، ويقدّرونه حقّ التّقدير ، ولو أنّهم لا يأخذون رأيه مصيباً في كل الحالات .

الرياض في ١٣٩٠/٦/٢٩ هـ .

(١) الطّرافة: الحداثة، والتّجديد، والانتقال من مكان إلى آخر، ومن لا يوجد له مثيل.
(٢) آزره: أقامه.
(٣) العذل: الملامة.
(٤) و ــ الطّلاوة: الحسن، والبهجة.
(٥) و ــ الرّشيق: حسن القدّ لطيفه.
(٦) الخصلة: الخلّة، والفضيلة، والرّذيلة.
(٧) الحلّة: إزار، ورداء برد أو غيره، ولا تكون حلّة إلاّ من ثوبين أو ثوب ببطانة.
(٨) البلّور، كتنّور: جوهر.

جندب

هادئُ الطَّبع ، تتقطَّع من حديثه نبرات[1] سحريّة ، توحي إليك شعوراً غريباً يدفعك إلى الإنصات ، والتهام كل ما يقوله جندب ولكنّه لئيمٌ حليمٌ ، لا يغضب حتى ولو تعرّض للمكاره ، ولا يسكت إلا على غلٍّ دفين ، يعرفه النّاس منه ، ولا يخفى عليهم ، ولو اكتوتم به واستتر ، يتحمّل الأذى بأعصاب باردة ، فلا يثور ولا يغضب ، ولكنّه يلسع[2] وهو يضحك ، نقده يجرح الأفئدة ، ويوغل فيها حتى لتظنّ أنّها ستنزف دماً ، بجملة مقتضبة ، أو كلمة ، أو ينقصها لتكون حرفاً ، ولربّما أنّه اختصر ذلك كلّه ، بنظرة ازدراء[3] لئيمة ، أولئك الذين يتميّزون عنه وهم على نقيض معه في هذا الطّبع ، يكرهوه ، ولا يذكروه إلّا بالشّؤم ، لا يتفاءلون فيه خيراً حتى ولو أطال الصّمت ، واستكان إثارة منه لهم ، يغيضهم ويدفعهم إلى النَّفَرَة[4] ، فلا تراهم معه إلّا في ثورة عارمة من الخلافات المذهبية[5] مذهبية لا تذهب بعيداً عن فهم كليهما ، كبير الجسم ، همّه اللهو ، والعبث بالزمن ، فلا يدع فراغاً إلّا وقد حاول أن يملأه لهواً ، وحديثاً خالياً من كل قيمة ، والشّر فيما يقول ، استرساله سردٌ ، أقواله الموزونة المقرونة بالبيان الطّيِّب اللذيذ ، الذي جلبُ الانتباه ، ويغلب على المستمع فلا تراه إلّا منصاعاً مشرئبّاً يتجرَّع من

جندب كل أقواله حتى ليأتي عليها كلها حفظاً ، لا تردع جندب ظنّاً منك حسن صنيع ، فهو لا يصغي إليك ، ولربمّا هزَّ برأسه ، دون أن يفهم أو يعي ما تقول ، وأودَعك في النهاية لغيبوبة تندم فيها ، فلا ترى ما بدر منك ، إلّا امتهاناً لنفسك ، وحقداً منه عليها يطعنك بالصّميم فتتألّم ولا تشكو منه إلّا إليك ، حديثه سهمٌ لا يصيب إلّا من يصاب ، وأولئك رهطة لا يصيبون ، يلهون فلا يعبأون[٦] بالهدى ، همّهم أن يقضوه مع جندب في لعب خائر[٧] موهون[٨] ، دروبهم معوجّة فلا يرونها مستقيمة إلّا بمسلك جندب القويم ، كلهم عميان ، صمٌّ بكمٌ ولو استرشدوا من غيري صواباً كنت أُسِرّه أو أجهر به منهم ، أو إليهم لا يفقهون قولي ، ولو تعمّدت أن أنقدهم ، فهم بالنّقد والسّبّ ، والشّتم يروقون ، ويرون ذلك صواباً ، همّهم إتلاف الزمن فيما لا يفيد ، هكذا دأبهم على مسرح الحياة ، قلوبهم غلف لا أدعو لهم إلّا بالاستقامة والعدول عن هذا الشرِّ ، وأكرهه في غيرهم ، فأدعو إلى اجتناب مسلك أولئك منهم ، إنّهم كثيرون ولا يحصرون في حساب ، ولا يقبلون على الشّدّة إلّا في برود واستكانة ، أمَّارون بما يسخط الله ثم النّاس ، ويلهم من آثامهم وخلواتهم إلى شياطينهم ، كيف يحلّون ما حرّم الله ويسوّفون إلى ذلك ، ويحرّمون ما أحلّ الله ويعلّلونه ، حتّى ليغدو بينهم ، حراماً محلّلاً ، وحلالاً لا تحريم فيه ، عقلاؤهم أرعن النّاس ديمومة على الخواء والوهن ، ليت لي منهم دعوةً للخير أسديها لهم ، يقبلوها منّي ، أو يأخذوها نصيحة صادقةً عنّي ، أبرأ إلى الله أن أكون في مقالي آثماً في نفسي ، وحريّ بغيري ممّن أراهم ويراهم النّاس نصّحاً رُشَّداً ، أن يسكتوا عن هؤلاء وكثيرهم في المجتمعات ، دون وعض أو حثٍّ منهم على الخير والفلاح ، وللناس جميعاً ، كيف يرون هؤلاء زللهم وعثراتهم فلا يقوّمونها ، ولا يعدلون بأنفسهم ، أليسوا يدّعون لأنفسهم بالصّلاح والتّقوى وهم أجدر من أن يلتصقوا إلى الجدران ،

لا لشيء يسكتون إلّا لأنهم قد يجهلون الحقّ فيصمتون . تبّاً لمن لا يعدل المائل ، ولا يفرِّج المكروب ، ولا يواسي المصاب والمشلول . دعوتي لمثل هؤلاء أرجوها ممّن لاتنام له عين ، فهو أبصر بنا وبأمثال جندب ... وأرجو الله تعالى أن يوفّق لي جندباً إلى كل مثل عال سام .

الرياض في ١٣٩٠/٧/٢٢ هـ .

(١) و ــ النبرة، من المغنّي: رفع صوته من خفض.
(٢) يلسع: يلدغ، واللسع لذوات الإبر، واللدغ بالفم، وإنه للسعة، كهمزة: قرّاصة للناس بلسان.
(٣) المزدرى: المحتقر.
(٤) نفر الظبي ينفر نفراناً: وثب، وهو ظبي ينفور، ونفّره تنفيراً: رقّصه.
(٥) المذهب: المعتقد الذي يذهب إليه، والطريقة، والأصل.
(٦) وما أعبأ به: ما أصنع، وبفلان ما أبالي، والإعتباء: الإحتشاء.
(٧) الخؤور، التّخوير، والخوّار، والخائر: الضّعيف.
(٨) الوهن: الضّعف في العمل، ووهنه وأوهنه: أضعفه، ومن لا بطش عنده، واهن وموهون، والوهنانة: التي فيها فتور عند القيام.

حكيم

أسمرُ اللون ، مكدّر الوجه ، ولكنّه مبتسمٌ ، يضحك إذا كان هناك مجال للضّحك وتثير انبساطه النّكتة الحلوة ، لا يجامل ولا ينافق ، ولو أن صفات حكيم كما أسلفت ؛ إلّا أنه يتحدّث في المجلس ، ويجادل ويناقش ويتطعّم النَّقد ، فلا تراه إلّا متصدّياً برأي ، طالما أُخِذ من الغير وحُمل محمل المجاز ، يقهقه أحياناً ، حتى يفقد منه صواباً ، لم تكن لتتصوّر أن يصدر منه ، إذا أعجب بحديث يدعو إلى مثل هذه القهقهة ، ولكنّه يتبدّى لك أحياناً أخرى منزوياً في زاوية أحد جدران بيته واجماً ، لا ينبس ببنت شفة وقلّ أن تجد حكيماً يتمشّى في ساحةٍ طويلةٍ متنفّساً لغيره ، يرون منها مسرحاً عندما يكلُّهم إعياء الخلود إلى الرّاحة ، فهو يفضّل البقاء عشرات الساعات ببيته لا يخرج منه إلّا لقضاء حاجة ، وإن أراد أن يقضي وقتاً خرج من ردهة[1] البيت ، ووقف في بابه قليلاً ، أو هو تجاوز هذا الباب إلى ركن حدٍّ لواجهة البيت ، يجلس لحظات مكتتماً[2] لا يحبّ المخالطة ، و لا يروق له النِّفاق أو النَّميمة ، همّه من نفسه ودون ذلك ، وحديثه يقتصر على اجترار الماضي ، أو استرجاع تاريخه في حوادث قصيرة كتجارب لحكيم ، يملُّها[3] إلى جلسائه أو هو ينصت لهم في أحاديثهم ، إذا اقتصر حديثاً له

اختتاماً منه لنهاية هذا الحديث ، يداعبه جلساؤه أحياناً فلا يمل من صديق منهم يفتح باب هذه المداعبة حتى ولو اخشوشن[٤] فيها . نحيل الجسم فهو إن وجد من مزاحهم عنفاً يعجز أن يقاومه يضحكون منه لا استهجاناً به أو لوماً عليه ، فهو أقل النّاس تحمّلاً للخشونة إذا تعدّت اللسان ، وذلك لنحول جسمه وضعف بنيته ، يساوم الآخرين على تجاوزه لغيره في مثل هذه المداعبة إذا أعيته الحيلة في إقناعهم لتركه وترّهاتهم[٥] ، ومع هذا فرفيقي حكيم ليس كسولاً متهاوناً في كلِّ شيء ، إنَّه من الجانب الآخر نشيطٌ بقلبه ولسانه ، وما أعطاه الله من بنية ، قلبه كبير يحبُّ العمل المفيد والخيِّر ، ولا يتوانى عن أن يتمرَّس بمثل هذا اللون من النَّشاط ، داعية ، يدعو إلى الخير وإلى كل شيء مفيد نافع ، يعرِّض جلساءه إلى عدم الرُّكون للكسل ، أو الانشغال بما لا يفيد فيحضُّهم ويدفعهم إلى استغلال فراغهم بالعمل والمثابرة عليه ، فبالرغم من بنيته الصغيرة استطاع أن يكوِّن من نفسه رائداً لجلسائه ، ونال أولوية السّبق إلى عمل كان يقضي به طيلة وقته فلا يكِلُّ ولا يملُّ ، حتّى ينال منه الإعياء منالاً ، وينزله التعب فيعود أدراجه إلى بيته الصَّغير ليستريح ، وهكذا دأب[٦] حكيم في أيامه الأخيرة ، حتى استطاع أن يضرب مثلاً أعلى إلى من هم جواره ، إذن هو نقيض لبعض مجموعات ، تفسد المجتمع كما يبدو لي من الغير ، ومن تحدّثت عنهم فيما أسلفت به ، لا أجزع من أمثال حكيم ، في حين أنَّني أفزع من غيره ممن لا يستنّون طريقه في الحياة ، ليتهم عرفوا قدر هذا الفراغ الضَّخم ، ليعلموا أن ذلك ذهباً يستطيعون الحصول عليه إن هم ساروا على نهج حكيم ، ولكنَّهم سادرون[٧] في غيِّهم ، لا ترتوي بطونهم إلّا تشهيراً منهم بالنّاس وفي ما يكرهون ، فعسى أن يتخلّوا عن منوالٍ سيّءٍ يحيكون فيه خيوط الشّر ، فلا تزيدهم إلّا تحقيراً وازدراءً من الله ثم النّاس .

الرياض في ١٣٩٠/٦/٢٣ هـ .

(١) ردهة البيت: كبره، وعظمه.
(٢) مكتتماً: كاتماً سرّه.
(٣) أملّه: قال له، فكتب عنه.
(٤) و ــ اخشوشن، وتخشّن: اشتدّت خشونته، أو لبس الخشن، أو تكلّم به، أو عاش عيشاً خشناً.
(٥) ترّهة، كقبّرة: الباطل.
(٦) دأب: جدّ، وتعب.
(٧) السادر: المتحيّر، ومن لا يهتم، ولا يبالي.

سعدون

يقال أنَّ القِطَّ عندما وجد أن من أثره[1] حكمة للناس يستفيدون منها ، درج على دفنها ، وهي غريزة في القطط ، هذا القول يفتقر إلى الصّحّة فهو مجرّد مثل بين النّاس ، وهكذا فسعدون ممن ألصق بهم هذه التهمة ، يسرح ويمرح في موكب الحياة مخادعاً ، يضحك بوجهه ، فيبدو لك صورة مشرقة لا يشوبها شائب ، ولكنّه يدفن حقداً في قلبه على كل النّاس ، يمكر بهم ، ويسخر إن خلى ولكنّهم يعرفونه جيّداً ، منبوذاً مكروه السّمعة ، يقبل على النّاس شاكياً أحواله ، يفنّدها ويفصّلها متنفّساً لنفس مكبوتة مجبولة على الحقد ، ولكنّه لا يسلم النّية في ذلك ، فالنّاس يدعون له بالفشل على كلّ حال ولا يتمنّون له الخير ، إن عرض عليهم رأياً لا يصارحونه بدعوتهم له ، يقابلونه بما يفعله تماماً والغريب في سعدون داءٌ دفين في قلبه ، لو طلبت إسداء خير ظنّ ذلك منك شرّاً ، ولو نصحته ظنّ بك الظّنون وسوّف[2] ، حتى ولو كان ذلك خيراً يعتقده هو بنفسه ، ولكنّه قلبه المأفون[3] لو طلبته أتفه الأشياء لظنّ بذلك كنزاً يخشى فقده ، فيختلق لك الأعذار يفعل كما تفعله القطط تماماً ، نمّاماً قوّالاً ، لا يؤمن جانبه حتى ولو ضحك ، فببسمته السمّ الزّعاف ، ولكنّه مع ذلك ضعيف خائرة منه هذه النفس ، فالنّاس لا

يتركونه إلّا نقداً وتجريحاً ، فينتقص منها ما يسلمه إلى السكينة ، مع محاولة اجتذاب الآخرين تكلّفاً ، لا يحبونه حتى ولو اصطفاه أحدهم خِلاًّ ، تصنّعاً ، لا يأمنون لسانه الخبيث ، ينظر إلى النّاس فيجد منهم عالي المزّية والرّديء ، ويحاول أن يقلّد منهم أصحاب النفوس الحلوة الطّيبة ، ولكن ذلك تكلّفاً منه لا ينجح أبداً ، ومهما بادلهم الزّيارات ، واصطنع لهم الوفاء ، يغدرهم إن ذهبوا عنه ويبتهج لهم بلسان وببسمة ضاحكة إن غدو إليه ، متهالك على المال ، وهو مثل النّاس كل النّاس ، أولئك الذين يتفانون ، ويغامرون بعرق جبينهم طلباً وراء لقمة العيش ، ولا يلام سعدون ولا يلام النّاس معه ، فكلّنا على وتيرة واحدة نعزف عليها جميعاً في هذا اللون من الفنّ المتعب ، سعدون يستدرُّ عطف أقلّة يشكو إليهم ، فيعينوه برأي ، لأن سعدون بالإضافة إلى ابتلائه بالجمع والتوفير تلتصق به بلوى افتتانه ، التّحدّث بالنّاس ، هذا طويل ، وهذا قصير ، وذاك يكرهني ، أو أولئك يشتموني ، والأقلة هؤلاء يدعون له بين النّاس ، ويخفّفون من سخط النّاس عليه بإقناعهم ، والدّعوة له بالخير ، لا يفعل ذلك معهم بطريق مغرٍ له علاقة تحبّبه إليهم ، كأن يكرم أحدهم ، أو يمدّ بعضهم بالمساعدة المادّية ، إذ أنّه يشكو إليهم ضعفه ، وتردّي حالته سمعةً بين النّاس ، فيرأفون بحاله ويتألّمون ، ولربّما أنّهم يلمسون بعد مدة ، جفاء سعدون لهم ، وتكالبه عليهم لأتفه الأسباب ، فسعدون يخشى أن تطول علاقتهم به فيضطر إلى التّعمّق والإسراف بهذه العلاقة حتى تؤدّى وبطبيعة الحال إلى باب الجيب ، فتسلّ منه بدناً، يحاول دائماً أن يجعل منه كيساً مملوءاً بالحسد والكراهية ، منه وإليه ، ينكر الجميل والعرفان بصدٍّ يضطرُّك فلا ترى سعدون باشّاً بك ، أو منحازاً عنك ، إلّا بما يدنّي من نفسه الضّعة والتّردّي ، لقد حمله النّاس على محمل واهٍ فلا تراه إلّا متعثّراً متخبّطاً دون هدى ، لا تجدي بسعدون إن أنت حاولت نصحه ، فهو يرى منك عدواً

ولربّما إنّه انتفض معتدّاً بنفسه ، واثقاً منها يدفعه صوت يترجم لك دخيلته ، ونظر إليك بمنظار يراك من ورائه صغيراً ، تعجز عن أن تتفوَّه إليه بالصّلاح ، فهو من أدرى النّاس ، ويعرف خطل الرّأي من مصيبه ، فتسكت عنه وتتمنى له الصّلاح ... ولأدعه .

الرياض في ١٣٩٠/٨/١٩ هـ .

(١) الأثر: بقيّة الشيء.
(٢) سوّف: تنفيس فيما لم يكن بعد، وتستعمل في التّهديد والوعيد، ويقال فلان يقتات السّوف: أي يعيش بالأماني.
(٣) و ـــ المأفون: الضّعيف الرّأي والعقل، والمتمدّح بماليس عنده.

إيـاد

إياد ، لم يبق من عمره إلّا أَقَلَّه ، فقد تجاوز وأفنى أغلب هذا العمر ، واجماً ، نظيفاً ، معقّداً ، يحب الاعتزال عن النّاس إلّا نادراً ، لا يتبسّط مع من يحب أن يجلس معه إلّا دقائق ، ثم يتثاءب أو هو يصدُّ صدوداً مصطنعاً ، يستشعر به جليس إياد ، فيدخل إلى نفسه الفتور ، ويذيب منه الرّغبة في أن تستمرّ جلسته مع إياد فينهض ويطلب الإذن ، بالانصراف .. إن دعاك إياد لشرب فنجان من الشاي ، فإنما يريد منك وبقرارة من نفسه ، عدم إطالة الجلوس وهذا ما تحسُّ به غالباً من الدّعوات التي طالما كانت تصدر من إياد لكريم من النّاس ، حديثه لطيف ، حلو ، هادىء ، لا تنفر منه إلّا بأساليبه التي تألفها إن أنت أحببت التعرّف إليه ، أو أخذ المزيد من تجاربه في الحياة . لقد مرّت عليه عشرات السنين ، ولقد اكتسب بها خبرات علميّة وعمليّة ، إياد يحبُّ التَّحدُّث إن راق[1] له التَّحدُّث في دقائق من ساعة ، فيسهب بماضيه ، ويتحدّث بدقّة وإتقان في الأحداث الشخصية التي كان يخلد فيها راحة ودعة[2] ، يضمُّه أحضان بيته وأولاده ، يرنو[3] لهم ولطالما أرسل زفرات من القلب فيتمنّى الأماني ، والحقيقة أن كثيراً من النّاس على شاكلة إياد ، فالكذب لا يعرف إلى أدغال نفسه سبيلاً ، لأنّه على علم بصدق نيّته ،

لا يتعمّد الأخطاء ، ولكن الأشرار من النّاس ومن هم على نقيض مع إياد لا يحبّون من أفئدتهم إلّا أن تكون آكلة للحوم البشر ، ينهشونهم[٤] ويتلذّذون لطعم هذه اللحوم ، ويستدسمون في نفوسهم مثل هذه الأجسام ، فلا يدعون منها منهشاً شواءً[٥] إلّا أكلوه ، وتحمّدُوا الله على هذا الشرَّ وآثروه ، ولربّما أنّهم أيضاً تطاولوا في الدَّيمومة عليه ظنّاً منهم أنّهم يحسنون صنعاً أو هم يرجون من ذلك صلاحاً فيتظاهرون لمن هم أعلى منهم درجات ، أنّهم سبّاقون للمكرمات بئس النّاس هم ، قوّالون نمّامون ، لا تتشدّق أفواههم إلّا بكل مكروه ، رفيقي إياد لا يحبُّ النَّميمة ، وتسمو فيه الفضيلة ، ولا يتحدّث عندما يحلو إليه الحديث إلّا بخلقٍ عالٍ رفيع[٦] ، وأما عن كونه لا يحبُّ إلى النّاس إبطاء[٧] الجلوس ، فذلك لأنّه يعلم حقيقة النّاس ، وليدعهم إلى شؤونهم فإطالة الجلوس مجلبة للقيل والقال ، بما لا يحبُّون ، وهذا طبع رفيقي إياد لا يحب أن ينهش أو يغتاب بما يكرهه غيره ، فهو إلى ذلك ممَّن أجلُّهم وأقدِّرهم ، وأكبر فيهم انشغالهم بما ليس للنّاس عليهم ومنهم سوء ، وسلامي على من طبعهم الخلق الكريم ، والفأل الطَّيِّب ، فالشؤم والنظرة الشريرة للئام النّاس وساقطيهم .

الرياض في ١٣٩٠/٦/٢٥ هـ .

(١) و ــ راق الماء: انصبّ، و ــ انصبّ، و ــ السّراب: تضحضح فوق الأرض، والرّيق، بالكسر: الرّضاب، وماء الفم.
(٢) الدّعة: الخفض، والسّعة في العيش.
(٣) الرّنو، كدنوّ: إدامة النّظر بسكون الطرف، ولهو مع شغل قلب وبصر وغلبة هوى، والرّنى: ما يرنى إليه لحسنه.
(٤) نهشه، كمنعه: نهسه، ولسعه، وعضه، أو أخذه بأطراف الأسنان.
(٥) شواء: مايقطع من اللحم، وأشواهم: أعطاهم لحماً يشوون منه.، ويقصد المؤلف من أكلة لحوم البشر أهل الغيبة والذين ورد قوله تعالى فيهم (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توّاب رحيم) الآية ١٢ من سورة الحجرات.
(٦) و ــ رفع، ككرم، رفاعة: صار رفيع الصّوت، و ــ رفعة، بالكسر: شرف وعلا قدره، فهو رفيع.
(٧) و ــ أبطؤوا: إذا كانت دوابهم بطاء، و ــ بطؤ، وبطأ عليه الأمر تبطيئاً:أخره.

حميد

أسمر اللون كثير الحركة ، يرسل إليك حديثه وكأنّما يحدوه حادي[1] يقول بأن أمّه ولدته وهي تمشي ، ويضيف إلى ذلك بأن والده أيضاً عجلٌ يأكل وهو يسير ، سريع الانطلاق ذكيٌّ ، متوقِّد الذِّهن والبصيرة ، محتالٌ صبورٌ على الحياة بشقائها وتعاستها فهي قاسية عليه لا ترحمه ، سريع البديهة ، خفيف الحركة يبارك به النّاس هذه المزيّة فيكبرونه ، ويقدِّرون فيه روحه ، ولكنَّه من أولئك الَّذين يسخطون بالنّاس ، فلا تعرف الثِّقة بهم سبيلاً إلى قلب حميد ، حميدٌ قلبٌ كبير ولكنَّه لم يوفِّق في أن يجعل من النّاس أصدقاء يعينونه على هفواته التي يفتحها عليهم ، يسعى إلى الرزق بهمّة نشيطة وبثقة في نفسه لا يجدر بغيره أن يمارسها ولكن الأرزاق لا تأتي يالحيل ، فحميد فرَّط في نفسه ونال من تفريطه النَّدم .

يشفقون عليه ، فحميد لا يحبُّ العجرفة والتَّباهي ، يلبس ملابس عاديّة لا تكلُّف فيها ، ويكره من النّاس أولئك الذين يتفاخرون في حسن الملبس والمأكل ، والمشرب ، ولربمّا أنَّه كثيراً ما كان يعِظنا ويلقِّننا دروساً في الاقتصاد مهتدياً بسنّة رسول الله ﷺ بالحديث الشّريف في تحريم الذَّهب للرِّجال وتحريم الحرير من اللباس ، يمقت أولئك الَّذين يسرفون في البذخ

ملبساً ، يظهرون به إلى النّاس ، وكان يقول بأن الجسم هو هو ، والعقل هو هو لا يتغيَّر ، إذن فهل للِّباس أثر على هذا العقل والجسم ، يحبُّ السَّير على الأقدام ويمتلك درّاجة عاديّة يقضي عليها حاجاته وأعماله اليوميّة ، دون أن تزدري أعين النّاس منه هذه الطّريقة ، منهم من يتندّرون[٢] به ويضحكون عليه ظنّاً أن ذلك مدعاة إلى السُّخرية ، ولكنّه يقابلهم ببسمة اعتاد أن يفرِّجها[٣] عن محيّاه كلما جاز وقتها المناسب ، يحتجب[٤] عن النّاس أحياناً فتدخل إليه في بيته لتجد ضروباً شتّى[٥] من أنواع الأخشاب التي ينشرها ، ويركِّبها ويصنع منها ألواناً جميلةً من الصناديق ومن الأشكال الهندسية التي يحتاجها النّاس فيبيعها بأثمان مغرية تدفعه إلى أن يقتات منها عيشة أولاده الّذين بلغوا العشرة ، ينزوي[٦] إليك في جانب من الغرفة مرشداً ولكنّه يحتال كثيراً في الحصول على مكاسب يحقِّقها من عملائه الّذين يعرفون طرق ملتوية كثيرة ، يسلكها حميد في معاملته معهم ، لا يقصِّر في أداء واجب يلتزم به ، ولكنَّه يقلب إليك الحقيقة في سلعة يغويك بها ، وتشتهيها ، فيمجّدها عندما يجد فيك الرّغبة في الحصول عليها ، ويفخِّمها[٧] لك ، لقد كلَّفتني وأفنيت بها وقتاً طوله كذا ، وعرضه كذا ، وهكذا دواليك[٨] معاملته ... تنقص حميد التجارب في صقل مواهبه العملية ، يجيد بها ويتفنَّن ويبدع أحياناً بصنع تستنكره من إنسان لم يكتسب من مهنته هذه غير خبرات علمية يعوزه فيها ، الأشكال الهندسية والقياسات الدّقيقة . أدعو الله أن يوفِّق حميد نماءً في مهنته هو وأمثاله .

طريف في ١٣٩٣/٦/٥ هـ .

(١) و ــ حدا الإبل: زجرها، وساقها، وتحادت الإبل ساق بعضها بعضاً، وأصل الحداء في: (دي،دي ــ بصوت راعي الإبل) والحوادي: الأرجل لأنها تتلو الأيدي.

(٢) ونوادر الكلام: ما شذ، وخرج من الجمهور.

(٣) فرّج الله الهمّ يفرّجه أو الغمّ: كشفّه، والفرج: العورة.

(٤) حجبه حجباً وحجاباً: ستره، الحاجب: البوّاب، والحجاب: ما أحتجب به، وما حال بين شيئين، ولحمة رقيقة مستبطنة بين الجنبين تحول بين السّحر والقصب كحجاب حاجز.

(٥) شتّى: أقام شتاءً، والشّتا: الموضع الخشن، والنّبات الشتّى تكثر أنواعه، وألوانه، ورياحينه في فصل الربيع.

(٦) و ــ زواه زيا وزويّا: نحّاه، فانزوى، و ــ الشيء: جمعه، وقبضه، والزاوية من البيت ركنه.

(٧) فخم، ككرم: ضخم، والفخم: العظيم القدر، ومن المنطق الجزل، والتفخيم: التعظيم.

(٨) دلكه بيده: مرّسه ودعكه، والشمس دلوكا: غربت أو اصفرت، أو مالت أو زالت عن كبد السماء.

سعف

غريبٌ بين النّاس ، والغريب أديب يتجنَّب الشّرَّ ويؤثر الخير ، ويحاول دائماً أن يعيش مع غيره بسلام ووئام ولكنَّهم لا يتركوه ، ولا يسلموه إلى راحته ، وادعاً[1] بريئاً يستثقلونه إذا ما التزم الدّعة والسّكينة ، فيثيرون منه أعصاباً لطالما أجمع على أن تكون ميزانه وتدبيره في كل أموره ، وكفَّة توازن إدراكه لمجريات ما يتعلق بحياته ، فيثور ويغضب ، ولربّما استعرض منه هذه القوة الكامنة[2] فلا يأبه بنفر منهم ، يضربه فيعرِّض نفسه للانتقام ، والنَّقمة عليه من الغير ، بعض هؤلاء الغير تنهش ولا تقدِّر مقام غريب بينهم فيعدلون ما اعوجَّ منه ويقوِّمون ، وإذا ما رأوا منه عدواناً عليهم لا بل إنَّهم يميلون[3] عليه ويعتدون ، ولربما في أغلب حالاتهم يبادئونه هم ، وينقلبون عليه شتماً وتقريعاً[4] ونهشاً ، بعض هؤلاء ضاعت منهم القيم ، كانت ولكنها ذهبت هباءً لا قيمة لها اليوم ولا مقدار ، ويركن سعف إلى أحد الزوايا كسولاً ميِّت القلب لا حراك فيه إلا روحاً تستنشق الهواء ، ذلك منه أغلب أوقاته ، ولقد كان نفر من النّاس يعطفون عليه وحاولوا أن يغروه علّه يفلح في ألفتـه للنّاس ولكن صاحبي عودٌ معوجٌ لا تدعو له حتى ولو لان لك منظراً ، وكلفت به جهداً ، عيناه تنمّان عن ذكاء ، وعاداته التي ألفها من غير هؤلاء النّاس ، كانت

مبعث شؤمه من نفسه ، وعنها يتحدّث أحياناً وإذا انبسط مع من يحبُّ التَّحدُّث معهم ؛ تبسَّم وضحك ضحكةً معقولةً متَّزنةً لا تكلُّف فيها ولا تصنُّع ، كان من أولئك نفرٌ يستفِزُّه ، وكثيراً ما يحطُّ من قدره ، وينزل به من المكارم إلى التَّدنِّي ، وسعف صبور مُستَكرَه ، ينظر إلى العواقب فلا يجرؤ على مطاولته ، أو التّسامي على من هم دونه ، ولكن ذلك النَّفر يفرط في شتمه والنّيل منه بما يكره ، فيضطر إلى الدِّفاع عن نفس أفرغها ذاك من كل قيمة ، يلطمه ولا هوادة في ضربه ، ولربّما أنَّه يوجع فلا يلبث ذاك إلا تركه فيهابه قاصٍ منه غير بعيد ، ودان له قريب ، وإذا ما أفسح المجال لسعف ينطلق بحديث موزون ، يشيد بمآثر أهله وذويه ووطنه فلا ينفك يذكرهم بالثناء والإطراء[٥] ، لا يتقوّل على ألسنة النّاس ، ولا ينقل عنهم إلا الحسن ، يمتدح من الناس كل خصلة تعجبه ، يُجمع أكثر النّاس ممّن لا يتملّقون ولا ينافقون بأن سعفاً صورة لإشراقة النُّفوس البريئة الوادعة المسالمة ، التي تكره الشَّرَّ حبًّها للخير ، ضحوكاً مرتاح النَّفس إن هو اجتمع بالأحبَّة الأقران ، الذين لا يوسوسون ، ولا يهمسون ، فهم أمانيه العذاب لقاءً وشوقاً ، لا يغيب عن ذهنه أن يذكر فصول الذِّكريات بتسلسلها ويستدرجها تفصيلاً وإسهاباً[٦] وإتقاناً ، لا يزيدها ولا ينقصها صحة ، ولا يعتورها الوهن أو الشك ، فهي سليمة معافاة من كل ظنٍّ سيِّءٍ مريب ، ولكن ركون سعف إلى الكسل لا يخلده إلى الرّاحة ، فقلبه الكبير مشغول ، يندفع بلسانه فلا تراه إلا حاثّاً مرشداً ، ولربّما أنَّه حاول أن يتغلَّب على نفسه ويكرهها فيورِّطها فيما يستفيد منه عملاً ، يتعب به جسمه ، ولكن وهنه عن أن يصل إلى مثل هذا المنال سرعان ما يحسر منه هذه الرَّغبة ، فيشدُّه إلى الخلود ، وإلى السَّكينة والخمول ، ذلك ما كنت أكره بسعف ، ولطالما كنت أتمنّى ألا تكون هاتين الصفتين فيه ليروق بعيني جليلاً كبيراً ، ولأتمنّى له كل مزيد .

الرياض في ١٤/٧/١٣٩٠ هـ .

(١) و ـالوادع : المعين ، وكلّ ماء جرى على صفاة .
(٢) كمن له ، كنصر ، وسمع ، كمونا : استخفى ، وأكمنه ، واكتمن : اختفى .
(٣) مال إليه ميلاً ، وممالاً ، ومميلاً ، وتميالاً ، وميلاناً ، وميلولةً : عدل ، فهو مائل .
(٤) التّقريع · التّعنيف ، والتّثريب ، ومعالجة الفصيل من القرع ، وإنزاء الفحل .
(٥) أطراه : أحسن الثناء عليه .
(٦) أسهب : أكثر الكلام ، فهو مسهب ، ومسهب ، وبئر سهبة : بعيدة القعر .

أسعد

شخصية مهزوزة ، بطول شامخ[1] فارع[2] ، وإذا رأيته حسبته من أبرز الرجال ، عقلاً وذكاءً وفطنةً ، ولكن تتلاشى فيك كل ظنونك فيه إذا عرفته ، واستنطقته ، واستجررت منه حديثاً ، ابن حلال ، مسكين ، بقلب طيِّبٍ نظيف ، لا يتوغَّل إليه الغشّ وبعقل أفكاره سطحيّة ، لا يدرك بها تعمّقاً منه في الأمور ومجرياتها ، يتحدّث ببساطة ، لا يكذب ، يحب النّفاق ولا يدمن على النَّميمة ، جباناً يخشى ظلَّه ، يضرب كالبهيمة فلا يدافع عن نفسه ، ولا يملك القدرة على المقاومة ، رعديدٌ تتفرّص[3] منه مفاصل أعضائه ذُلاً ، لو يتعرَّض لأخفّ عوامل الرّعب والخوف ، همُّه أن يعيش مع النّاس بسلام ولو آذوه ، فهو يتلقّى الأذى ويصبر عليه ، ولو تعرّض للأذى ، عصبيُّ المزاج على ذويه ، لقد علّمته التجارب كما يذكر تنظيم علاقاته مع النّاس آجلاً ، وكنت أجلس إليه كثيراً ، وآخذ منه جزءاً من بعض وقته ، يقصُّ عليَّ فيه تاريخ حياته ، فيذكر لي أنَّه متزوِّج ويعول أحد عشر ولداً من ذكر وأنثى ، تركهم لأقربائهم يتولَّوْن رعايتهم .. لبعده عنهم فهم يشرفون على العناية بهم ، وكثيراً ما كنت أطلب منه ليصف لي شعوره نحوهم في منآه عنهم ، فأجد بلادة من رفيقي أسعد الذي لا يبالي ولا يهتمّ بهم ولو استحثثته عن ذلك

ردّد حجّته المعروفة ، التي يكرِّرها عند كل مناسبة يُسأل فيها عن هؤلاء الأولاد يقول (على الله يا بوي) ! ونعم بالله يا رفيقي أسعد ، فالله سبحانه وتعالى لا يخلق روحاً إلّا ويسبّب لها رزقاً ، تستفرغ منه ألم السَّغب[٤] ، ومساس الفاقة[٥] ، وتستطعم به مذاق الحياة ، إن قدَّر الله لها دوام البقاء إلى حين ، لقد آذاه ذووه وحتى أقرب المقرَّبين إليه ، يوضِّح لي بأنَّه كان يكثر من إسداء الجميل إليهم ، ولا يبالي بالمادَّة في سبيل إرضائهم ،وكان يحضي أهل زوجته بالمودّة من دون النّاس ، ولكنَّه عندما جرَّبهم وجد منهم جفاءً في ردِّ الجميل ، ممّا اضطرَّه ذلك إلى أن يهجرهم ، ولقد حاول ذووه أن يتّصلوا فيه فيما بعد ، ولكن صاحبنا أسعد بدأ يقابل الجفاء[٦] بالجفاء ، وبقلب أصمّ لا يؤثر فيه الحنان ولا تفتنه الرَّحمة والشّفقة ، كان ذلك صدىً منه لصدودهم عنه وهجرهم له ، ولقد حاول أخواه عبثاً إصلاح ذات البين[٧] ، ولكن صاحبنا أصرَّ على عدم مقابلتهم واستطاع نفر أن يؤثروا فيه لا سيما وأن أخويه تعنّوا له من مكان بعيد ، ويا ليتهم لم يقنعوه بالمقابلة ، لقد قابلهم صاحبنا وكأنَّه لا يعرفهم ، وانطلق عليهم بلسان سليط ، أعمى منهم بصائرهم وعلى مشهد من النّاس ، فاضطروا إلى التّخلي عن عنائهم والنّدم لمقابلتهم له ، وعادوا الهوينى[٨]أدراجاً من حيث أتوا ، وأخذ النّاس يلومونه على إساءته ، بمثل هذا التّصرُّف ، ولكنَّهم يجدون من أسعد عنتاً شديداً ، ومقاومة صلدة عن رأيه ، وبذلك يستطيع إقناع البعض ، وأتعارض مع رفيقي هذا ، وأقول إن كنت أسديت لهم معروفاً ولقاء ذلك وبمفهومك إلّا أن هذا ليس هو الأسلوب الذي تنتقم فيه منهم ، لا يا رفيقي تعقَّل ، فأنت مخطىء في أن تتصرَّف على هذه الشاكلة ، يكفيك أن تبتسم لهم ، حتى ولو تتكلَّف هذه البسمة ، وتجاملهم وتكسب ودَّهم ، بما لا يشذُّ عن قاعدة حسن التَّصرُّف ، إنَّك تنفرِّهم منك ، بالمهاترات ، والكلام الفارغ ، وتذكيرهم بجميلك لهم ، وأنَّك فعلت كذا

وكذا ، وهذا لا يصلح للعاقل ، تدبَّر أمرك ، وعد إليهم وكاتبهم ، واعتذر منهم ، فهم لا يؤاخذوك ، ولا يحملوا عليك إلّا كلَّ ظنٍّ حسن ، إنَّهم رحمك ، يؤذيهم ما يؤذيك ويتألَّمون لسقمك ، وإذا ابتليت فلن تجد من النّاس إلّا هم ، يرفون[9] خطلك[10] وكما قال المثل (أنفك منك ولو أعفنك) ومن تصرُّفات صاحبنا أسعد نحكم عليه بعدم خلوِّه من الحقد والضَّغينة ، فهو حقود لئيم ، وليس كل اللؤم ، ولكنّنا لا نحمل عليه مبالغة منّا في تخطيئه ونطلب من الله إليه الرُّشد .

الرياض في ١٣٩٠/٦/٨ هـ .

(١) شمخ : علا وطال .
(٢) فارع : المرتفع الهيّء الحسن .
(٣) تتفرّص : تتقطّع ، تتخرَّق ، تتشقّق .
(٤) السّغب : الجوع مع التَّعب ، والمسغبة : المجاعة .
(٥) الفاقة : الفقر والمجاعة .
(٦) الجفاء : منع المواصلة .
(٧) إصلاح ذات البين : التّقريب بين مسافتين ، أو إصلاح بين اثنين متخالفين .
(٨) وهونا : سهل ، فهو هيّن .
(٩) و ــ رفى الثّوب : أصلحه ، والرفاء ، ككساء : الالتحام ، والاتفاق ، والتسكين من الرّعب .
(١٠) الخطل : الخفّة ، والسّرعة ، والكلام الفاسد الكثير .

مسلمة

أسمر اللون ، معقوقد الحاجبين ، باسم الطَّلعة ، بعينين حادَّتين تنمُّ عنها سلامة النِّيَّة وطيب القلب ، وتصنُّع الخداع في النّاس أحياناً .

فمسلمة شابٌّ مرن ضحوك ، يحب المزاح ويفرط فيه حتى تمجُّه[1] منه ، وتتمنّى لو أن الصورة التي تأخذها لأول وهلة[2] غير تلك التي تنفرج عن ستار الصبيانية في معاملة هذا الشاب ، يمارس الألعاب الرياضية بأنواعها ، نشيطاً وبهمَّة تفوق المستحيل في اللهو والطّرب ، لا يرتاح إلّا إلى الصبية ممن هم أدنى منه سنّاً ، يتبسَّط معهم ويمزح، ولربما يشتم ظنّاً منه أنَّه يحسن العلاقة مع الغير ، ذلك يبدو منه ، على مرأى كثير من النّاس ، يستدرج من النّاس عطفهم عليه ، يتشبّث بهم معتدّاً بنفسه ، يمتدح نفسه كثيراً أو يراها أكبر من قدرها ، ويتوق إلى أولئك الذين يقبلون على المزاح معه ، فيشتمهم أو يستعرض عضلاته ، فيضربهم ضرباً غير مبرَّح ، أو يلقي بأحدهم أرضاً ، فهو نشيط متوثّب الحركة ، إسمرار لون مسلمة ، وبشاشة وجهه ، وبعينين حادّتين تدني النّاس منه ، يقبل عليه من هو في شاكلته بهذا الطّبع ، أو أولئك الذين نشأوا في بيئات ينشأ فيها الشباب مولعاً بالطّرب وانطلاقة المعشر ، نجد ذلك في أقاليم عدّة من بلدان العالم ... فالأقاليم الصّناعية التي يترعرع

بها الشابّ في حياته ، تحت وطأة المسؤولية يتأثر في سلوكه من الناحية المعشرية ، فلا نجد به مرونة مسلمة في هذا اللون من ألوان المزاح ، ولربما أننا نجد للحضارة أثراً كبيراً في حياة الشّباب فينعكس في طبائعهم ، فكلّما اتّسعت الحضارة من حيث قيمها المادّية كلّما تعقّد بها الشّباب وتبرّموا[٣] كما يحصل في أوربا ، وذلك ليس حكماً منّي على كل الشّباب ، ولكن الجدّ الّذي تبدو ألوانه على كثير منهم ؛ يعطينا الدّليل على أن لهذا الأثر فعّاليته .

فالمتطلّبات تستلزم من الأفراد ، التّهالك في السعي وراءها ، مما يجبل طبائعهم بالجدّ ، وعدم ضياع الوقت في اللهو والتّسالي ، كما يصطبغ به لون رفيقي مسلمة ... مسلمة ينفر من رجال الأعمال ، ويكره العقلاء منهم ، ويسايرهم مجاملة دون أن يطلق لنفسه العنان في أن يتحدّث طويلاً ، كطريقته التي دأب عليها في معاملته مع الصبية ممن هم دونه سناً ، ولقد تحدّثت معه كثيراً وسايرته واستصحبته أكثر من مرة ، يفرغ لك ما في جعبته[٤] عندما يتحدّث ، ولا يبالي في عواقب الأمور ، يكذب أحياناً ، ثم يتراجع ، وكثيراً ما أدّى ذلك إلى مشاكسات تحصل بينه وبين النّاس ، ولقد نصحته كثيراً للعدول عن هذه الخصلة ، يسمع من صديقه كذبة ثم يلومه عليها ، فيحلف أيماناً غليظةً بأن ما يقال ، ينسج عنه دون علاقة له في ما يروى من الكذب ، ولكن ذلك يتكرّر منه حتى عرفه النّاس ، يتفاخر في نفسه بأعمال لا يجدر أن يقوم بها فيلقِّن النّاس بأنّه عنتري ، لديه القدرة على المستحيلات التي يستحيل أن يقوم بها غيره ، يزيّنها وينقِّشها بجرأة كبيرة ، كنت أحاول معرفة أثر هذه العلاقة ، وعمّا إذا كان لها أثر على مسلكه العملي فأجد أثرها فعّالاً ، لا يدقّق مسلمة فيما يقوم به من أعمال وكذلك فإنّنا نجد ما ينتجه مسلمة ضعيفاً دميماً[٥] ، تعوزه الدّقة والملاحظة ، لا ينشد إلّا إلى الخمول فيما ينتج ولو تبدّى للنّاس نشيطاً ، متوثّب الحركة ، يتعلّق مسلمة بالأوهام

ويعشقها ، ويحبّ أن يبني العروش فوق الأفلاك ، يملك القدرة على البناء في الفضاء عندما تجلس إليه ينتثر إليك حديثاً بمشاريعه التي لا تحصى ، وتراه في اليوم الثاني يعدل عنها جميعاً ليبني حديثاً بمشاريع أخرى في وقت هو صفر اليدين من كل ما يشرعه مسلمة .

طريف في ١٣٩٢/١١/١٢ هـ .

(١) مجّ الشّراب من فيه : رماه ، وانمجّت نقطة من القلم ترشّشت ، والماجّ : من يسيل لعابه ، والرّيق ترميه من فيك .

(٢) و هلة : أول شيء .

(٣) تبرّم : أملّه فملّ .

(٤) الجعب : ما اندال تحت السّرّة ، والأجعب البطين الضّعيف العمل والجعبوب : النذل القصير ، الدّميم ، من لا خير فيه ، والجعباء : الضخمة الكبيرة .

(٥) الدّمة بالكسر : الرجل القصير الحقير ، والهرّة ومربض الغنم .

جريس

رجل فارع[1] الطول ، محبٌّ لنفسه ، شجاعٌ ، شهمٌ ، عاملٌ لا يتوانى ، ولكنّه من ناحية أخرى منفردٌ لا يحبُّ الاجتماع ، معتدٌّ بنفسه ، كثير التّشبيب[2] بها لدرجة تمجّه فيها ، اعتاد هذا كثقة يغرسها في هذه النّفس ، حتى ولو تحدّى الآخرين ، وكثيرٌ من هؤلاء النّاس من تراه على خلاف معه ، وربّما يصل إلى مشادّة يستعمل فيها العنف ، فبفراعة طول صاحبنا جريس ، وبعافيته الممتلئة حيويّةً ونشاطاً ، يرفع كلفة التّهاون من قبل من يتهاون فيه ، أو يقلّل من شأنه ، يدفع الأذى عن نفسه مستعرضاً هذه القوة في سواعد قوية ، يرى نفسه ، فلا ينفك يطري هذه النفس ، ويذكرها ويمتدحها دون وجل[3] أو حياء ، وبذلك فرفيقي جريس يساء الظن به من قبل النّاس فلا تراهم يحفلون به إلّا النّادر منهم ، وإن كنت يارفيقي جريس تدعو إلى نفسك بالعزَّة والأنفة فالعزَّة لله جميعاً ، وعيب عليك أن تمتدح منك هذه النفس لأنك غير محقّ فيما تذهب إليه بين النّاس سبيلاً ، اعدل وعلّك تستهدي صواباً فتفلح ، وإذا كنت كفؤاً لما تشتهر به بين النّاس لنفسك فأقلع كما ذكرنا لك عن إطرائها واستطرد في محاولاتك دون أن تعني وتشغل غيرك في التفكير فيك ، لساناً وتشهيراً ومدحاً ، ربَّ سارّة ضارّة تعتقدها

أنت ، إليك تعود ، ومنك تصدر ، فلا تجد عند غيرك إلا استهتاراً[٤] ، وتقليلاً من شأنك وهكذا .. فدأب النّاس أنهم أذكى من أن تتصوّر طريقاً صواباً تستنّه فلا ترى فيه عيباً ولا عوجاً ، ويرونه منك خَرْطاً[٥] تقتطعه من معدن كذب ، ولو أنك لا تكذب ، هؤلاء كثير منهم من يحب النّفاق ، ولا يحب تشميتك حتى ولو تحمد الله في عطسك ، ليت منّي أن أعبر لأغور في نفوس هؤلاء النّاس ، أنا أقدّر فيك مزايا ، ولكنّي أبغض لله منك أكثر منها ، قلّ أن تجد من يحب الخير للغير كمحبته لنفسه ، وتكاد تقول معدوماً ، إلّا من أصلح الله له نفساً ، فتاقت[٦] إلى بارئها ، بعيدة عن زخرف الدُّنيا وبهجتها ، أرى كما يرى هؤلاء ، ولكنّني أحذِّرك منهم ، لأنني أنصح وعسى أن أفلح ، فلربّما أن نظرتي تختلف جوهريّاً عنهم ، منهم الرّعاع ، والسُّفهاء ، والرّواسب ، أتراني مفلحاً فيما أرى أو مخطئاً لم أُصِبْ ، أحبُّ من رفيقي جريس نشاطه ومراسه عندما يعلق مع من هم في شاكلته بضروب من الحياة و تجاربها ، فهو نشيط ، لا يتوانى بعمله يمزح ولكنَّ مزاحه خال من اللّطف واللِّين فلا ترى ممّن يتلقّون منه العنف والقوّة في هذا المزاح إلّا قططاً ترتاح ، ولا ترتاح إلّا بخمشها ، جريس نوع آخر ، فهو صورة باهتة من صور النّاس الّذين يتعاملون في المجتمع حتى في أضيق نطاق ، ولكنَّه عمدة من هم يحذون حذوه في هذا النهج ، من اقتضاب علاقاتهم مع النّاس ، لا سيما وأنّه يحسن في كيفيّة مخاطبته إيّاهم ، فهم يبدون صغاراً إلى جانب رفيقي جريس ... ولربما أنَّ لجريس سحراً يستلب منهم عقولاً إليه ، فلا يعصون ولا يلوون ألسنتهم بمعارضة ، ولا ينقدون من جريس خلّةً واحدة ، لا بل تراهم منقادين له مطأطئين رؤوسهم طاعة وإذعاناً[٧] عندما يتحدّث جريس إلى مجموعة تتمنى أن يتّعض رفيقي هذا بعظاة لقمان لابنه ، ولكنك لا تتألّم من جريس ، وابن لقمان أيضاً فريد لا يعلو كمايصف في عظاته لقمان ، فالنّاس أقلّة أولئك

الذين يُختَلَط بهم ، وإلّا لضقت بجريس ذرعاً ، ولحملت نفسك على الإكراه في أن تستكين إن لم تمسكها ، فتختلفا ، كلاكما على طريق نقيض للطريق الآخر .

الرياض في ١٥/٦/١٣٩٠ هـ .

(١) الفارع : المرتفع ، والهيِّء الحسن .
(٢) التَّشبيب : النَّسيب بالنّساء .
(٣) الوجل : الخوف .
(٤) المستهتر بالشيء : المولع به ، لا يبالي بما فعل فيه ، وشتم له ، والذي كثرت أباطيله . وتهاترا : ادّعى كلّ على صاحبه باطلاً .
(٥) خرط الشجر يخرطه ويخرطه : انتزع الورق منه ، والعود : قشّره ، وسوّاه ، والصانع اخترط المعدن .
(٦) تاق إليه توقاً وتؤوقاً وتياقةً وتوقاناً : اشتاق .
(٧) أذعن له : خضع وذلّ وأقرّ ، وأسرع في الطّاعة ، وانقاد .

جرير

باسم الطلعة شابٌّ ،لبقٌ ، لطيفٌ ، كذوبٌ معتدٌّ ، يحلم بالشَّجاعة ولكنَّه يفتقدها ، إن أطال إليك حديثاً ، فلتنصت إلى أقواله ، ولتشيد فيه ، وإلّا هَزِىء[1] ، أو تعرَّض[2] لك بين النّاس ، بسمته الوادعة وجمال أسلوبه إن امتدحك ، أو أشاد بغيرك ، ما يفتقده البعض من النّاس ، وذلك لذكاء بجرير ونباهةٍ ، لا ينسى أن يقرن هذه البسمة في السُّخرية لبعض النّاس ، يقلِّب لك الأمور ويجترُّ[3] الماضي ، وقد يسحر ببيانه من يغرر بهم أولئك الذين لا يعرفون عن جرير خبراً ، إنَّهم مأخوذون بسلاسة[4] أسلوبه وبجودة منطقه ، يسلِّمون برأيه لأول وهلة ، وقد يقلب لهم حقيقة تنال منهم القبول ... أو قد يكذب عليهم فيزيف حقيقة يوردها بغير تبويب لأصول حديثه ، وجرير ليس قليل شرّ ففيه من الشجاعة ما قد يستضبع صورة إنسان ، يدخل إلى نفسه جرير ، فيراه دونه منزلة[5] فيسخط منه ، أو قد يوجعه بدفاع يختلقه ولو بدون سبب ، يثني على نفسه ، ويكثر من إطرائها إلى الدّرجة التي تملّ بها جريراً فتكرهه ولو أنّه صورة محبَّبة لمن يجهل خصاله .

يشتم زيداً من النّاس ، ومن هو أعلى منه منزلة عندك ، ثم تراه على وئام مع من اغتابه ، فتشكّ من جرير ، وتبتدره كيف ذاك منه قبلاً وكيف

به الآن ، فيجيبك بأن (اليد الّي ما تقدر تدوسها بوسها) ، كيف يكون منك يا جرير هذا النِّفاق وهذا الكذب ... تمتدح نفسك إلى غيرك إطراءً وتقيِّم منزلتك إلى درجة أن تطلب من غيرك أن يثنوا عليك وأنت على هذه الوتيرة السيئة ، أقلع عن كذبك وخيلائك ، وازدرائك للناس ممن لا يمتدح فيك هذه الخصال ، وإلّا فأنت موضع استهجانهم ، وعزوفك وبريق نقدهم لذاتك[6] ، جرير ينساق إلى التّجديد لكلِّ جديد ، تأخذه المظاهر ، وتلفته الفنون المستحدثة ، وقد يخاطب غيره ظهوراً منه بهذا التَّجديد ، يغتاب غيره ، عند من يأخذون عليه هذه الخصلة فيسيئون الظَّنَّ فيه ، ولربّما هابوه للسانه السّليط ، تجتمع الأخلَّة ممّن يحبُّون مظهر جرير على هذه الوتيرة ، فيدفعونه إلى المزيد من التّطاول على الغير ، إمْا لكره منهم لهؤلاء ، يغامر جرير وقد يخطىء التّقدير للعواقب ، فتراه يسلك طريقاً لا يعود عليه بالنّفع ، علاقاته مع الغير ، وخيلاؤه قد تخلق له عداوات كثيرة ، أو قد تؤدي لمسلك يتيمَّم[7] به جرير النَّجاح ، فلا يخلد فيه إلّا إلى الفشل ، نشيطاً مثابراً ، يخلط حركته بحماقة تعقّده أحياناً ، ولكنّها لا تظهر في قسمات وجهه ، مرحاً ضحوكاً متهلِّل الوجه ، ولكن من ألف أخطاء جرير لا يغفرها له ، يرصد زلاته ويحاسبه عليها ، فتراه على خصام مع الغير ، يسبُّهم ويلعنهم حتى ليبدون إليك مخطئين في حقِّ جرير في حين أنَّهم يوفون جريراً حقَّه .

وهكذا دأب النّاس ممِّن تتلوَّى قلوبهم على الحقد والضَّغينة ، يظهرون لك التَّسامح ، ولكنَّهم يبطنون بقلوبهم ، فيصطادون أمثال جرير حين يستعرضون بلسانه هؤلاء النّاس . وأرجو من الله أن يوفق جرير .

الحديثة في ١٨/٥/١٤٠٨ هـ .

(١) هزئ : سخر .

(٢) تعرَّض له : تصدّى .

(٣) يجترّ : ما يفيض به البعير والحيوانات المجترّة فيأكله ثانية ، وقد اجترّ ، وأجرّ ، اللقمة يتعلّل بها البعير إلى وقت علفه .

(٤) السسّلس : السّهل ، اللّين ، المنقاد .

(٥) المنزلة : موضع النزول ، والدّرجة .

(٦) ذات : منزلة النّفس .

(٧) التّيمُّم : التّوخّي ، والتّعمُّد ، ويمّمه : قصده .

أسامة

أسامة هو رفيقي الجديد ، ذو أخلاق تجارية ، وأعصاب مزعزعة موتورة ، يتصرَّف أحياناً كما تفعل السّائمة[1] وتراه أحياناً وجلاً حييّاً ، يحسن الحديث ، ويقصص فلا تملّه ، ولا تريد منه أن ينفكَّ عن مثل هذا الحديث ، يتلهّى ويسلو بحساباته القديمة ، فلا تراه إلّا موسوساً معنيّاً في أمره حيناً ، متعلِّلاً في أحيان أخرى ، ثم يجدّ فينشط حركةً ، ويتفنَّن قولاً ، فلا تعوزه من انطلاقته في تلقين النّاس أسس وأساليب الحياة وأفانينها إلّا سبّورةً يملي بها عليهم ، أو آلة تسجيل يرصد بها ما تزجيه قريحته ، لا ترى ذلك منه إلّا نادراً من الوقت تحضره ساعات تتعقَّد بها نفسيّته ، فلا تراه إلّا متبرِّماً بالنّاس ، خالياً إلى نفسه ، عزيز النَّفس كريم الأخلاق في ساعات صفوه ، سيِّء الخلال ، بليد الطِّباع إذا تعرَّضَت نفسه إلى التَّعكير ، هذا ما كان يخلق لأسامة كثيراً من المشاكل مع زملائه ، يقعد إلى البعض ، يثقِّفهم ويعلِّمهم فلا يملّ ولا يزمل[2] ، ولا يخلو صاحبنا من الغرور والتَّبجُّح ، وهذا ما كان يكرهه النّاس من أسامة ، لا يحبُّ الصَّخب[3] ، والهدوء هو مدخل نفس أسامة إلى الرّاحة والسَّكينة ، أسامة مخلوق عجيب وغريب ، شجاع ، يخلط هذه الشَّجاعة بحماقة تمقته فيها ، ولو أشجاك منه بعض صفاته التي تخاله

بها عبقريّاً فذّاً ، سافر إلى بلدان عربيّة كثيرة وأجنبية واقتبس لغات عدّة يجيدها ، ولكن تجاربه الكثيرة لم تصقل جوانب نفسه أو توشّي حواشيها ، ولربّما أنّ علاقته الطّويلة مع مختلف النّاس كثيراً ما تذكي به شعلة الألم المرّ ، فقد افتقد من أمانيه آمالاً عراضاً ، كان يعلّق عليها السعادة التي طالما تمنّاها البشر ، وتفانوا من أجلها ، بطريق العمل الدائب الكؤود[٤] ، أنانيٌّ أحياناً ، لا يأبه[٥] النّاس به ، فيعود أدراجه مفرغاً نفسه من هذه الأنانيَّة ، مسلّماً ، مصافحاً ، بعد جفاء يستمرُّ معه ، ما دامت هذه النفس تعبث بالمكارم والأخلاق فلا تقيم لها وزناً ، لؤم صاحبنا لا يدوم طويلاً ، واللؤم من اللئيم لا يتصدَّى له النّاس إلّا بسلاح الكرامة وتزكية التّصرُّف بها ، أمّا الكريم من النّاس ، فكلّما زدته إكراماً ، كلّما حفظ لك الود ، والإخلاص والتّفاني في سبيل إرضائك ، وهذا الكلام ينطبق على قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

عزَّة النفس هي ما يحلو لي أن أتحدّث عنها في صاحبنا ، فهو يحبُّ أن يأكل من التّراب على أن يتمنّن النّاس ، وتراه منشغلاً منصرفاً في سبيل الحصول على كفايته بطريقة خدمة النّاس ، بالعمل الشّريف خشية من منّتهم عليه ، كلفاً بنفسه معتزّاً بها ، ولكنّه مضطرٌّ إلى مجاراة النّاس وخدمتهم ، حتى ولو لم يستسغ ذلك ، ولربّما تاقت نفسه أحياناً ، فيدع مهنته هذه ، وصاحبنا لا يخلو من نقص تركيبي ، وذلك ما يسلمه إلى مثل هذه التصرفات ، وهو يرى بتصرفاته استخفافاً من النّاس به ، وتقليلاً منهم في شأنه ، فيتشفّى بترك عمله الجديد ليرتاح نفساً ، والنّاس طبعهم تحسّس مدارك الغير ، فهم إن رأوا منك عناداً وتصدّياً صلداً ؛ لا ينظرون إليك إلّا بعين الاعتبار فيزنوك بمقدارك ، وإن أنت انجرفت تصغي ولا تناقش أو تتمعّن أو تخالف ، استخفُّوا بك وقلّلوا من شأنك ، ولربّما أنَّهم يستعرضون قواهم الظاهرة والباطنة في

سبيل أن يغيضوك ، فإذا ما وجدوا منك تحمُّلاً وصبراً ، وتفانياً ، أكبروك ، وأجلّوك ، وإن هم وجدوا النَّقيض من ذلك استفزُّوك وعاندوك ، وما عليك إلّا أن تكون خضمّاً كبيراً ، وصخرةً صلدةً ، تتكسَّر عليها الأمواج وتتناثر ، فلا تؤثر فيها ، وأمّا رفيقي من أولئك وهؤلاء فبمركز وسط بين بين ، تراه صابراً متحمِّلاً أحياناً ، وغاضباً أخرى ، وساعاته ليست على نسق رتيب في الصَّبر والأناة على أذى النّاس ، أو السّخط عليهم ، يتحدّث كثيراً عن الحضارات السائدة والبائدة ، فله إلمام بالتاريخ وينسج أخيلته أحياناً فيبدو لك صورة من العناصر الفعّالة المفيدة في المجتمع لخبراته المتعدِّدة ، ولمراسه الطّويل في لون واحد من ألوان المعرفة ، ويقول بأنَّه كان يحسن العلاقة مع النّاس على أساس من الأمانة والإخلاص ، وبذلك استطاع أن يكسب منهم الثِّقة فيه . ولأدع زميلي أسامة .

(١) و ـــ السّوام والسّائمة : الإبل الرّاعية .
(٢) الزَّمَل : ظَلْعٌ في البعير يؤلمه ، أو في أحد خفافه .
(٣) الصّخب ، وتصاخبوا : تصايحوا وتضاربوا .
(٤) و ـــ عقبة كؤود ، أو كأداء : صعبة .
(٥) أبه ، على وزن فرح : فطن ، أو نسيه ثم تفطّن له . وهو لا يؤبه له .

مـروان

رفيقي الجديد مغفَّلٌ ، حسن النِّيَّة طيِّب القلب ، لعّاعاً[1] ، كما أحب أن أصفه ، مهذار ، يُظلَم ولا يَظلِم ، له لسان إذا انطلق فكأنَّما هو طلقات مسدّس متتالية ، حياته أسى وألم ، لا يغتابه أكثر النّاس إلّا بالجميل من القول يرفقون به ويشفقون عليه ، كثيراً ما كان رفيقي مروان يكثر عليَّ التَّحدُّث عن هذه الحياة حياة الحرمان والبؤس ، فحياته كما يذكر كلُّها شقاء وتعاسة ، نشأ صغيراً في حِجْرِ[2] والدته بعد وفاة أبيه ، والتي كانت توليه عناية كبيرة ، تفوق عنايتها به إخوته الأربعة بالرّغم من أنَّه كان أصغرهم ، ووفِّق في بداية حياته بعمل كان يسدُّ عليهم رمق[3] العيش ويكفيهم الفاقة[4] ، وكانت تتولى والدته الإشراف على مرتّبه الصغير ، الذي يقول إنَّه إرضاءً لوالدته لم يتصرَّف به ، طيلة حياته الوظيفية إلّا بما تجود به عليه هي . وقد استطاعت والدته هذه التّوفير له بطريقة كانت تقتصد بها على أسرتها ، فتبسِّط لهم رغد[5] العيش ، بطرق النِّساء اللواتي يباركن في البيت الذي يُخلقن فيه ، فمن النساء من تسيء التّصرُّف في الاقتصاد ، فلا ينال صاحبه إلّا الإفلاس والدّيون ، التي تؤدي به إلى إلحاح النّاس عليه بالمطالبة ، وأم رفيقي مروان تختلف عنهنَّ في طرق التَّدبير ، وبذلك استطاعت بعد مضي مدّة بسيطة ،

أن توفِّر لولدها مبلغاً يكفي مطاليب وتكاليف الزواج ، وقامت أيضاً بانتقاء الفتاة التي تريدها هي ، لأنَّه ليس لرفيقي مروان من الأمر شيء سوى أن يحقِّق رغبات هذه الوالدة ، ووفّق بالزواج ، وخلَّف من زوجته ابنتين وولداً ، ولكن الوفق لم يدم فيختلف مع زوجته ، ويهجرها مدّة طويلة ، وهاهو ، يتوجّد لوعة وأسى ، ويؤلف أبياتاً من الشعر سقيمة ، يذكر فيها الماضي ، ويتمنّى الأماني ، (ولو) حرف طالما ألفته من مروان ، ولا يتحدَّث مروان بحديث إلّا (ولو) قريناً لهذا الحديث ، ويكثر من التَّسبيح فتراه أغلب أوقات الصّلاة حريصاً على القعود لها قبل وبعد أدائها ، مهلِّلاً ، مسبِّحاً ، متضرِّعاً .

خُلِسَ من مروان جزءٌ كبيرٌ من ذهنه ، فهو لا يعي من ذاكرته في حفظ الماضي ، إلّا الشَّيء اليسير ، وتتعجَّب منه حينما تخلو إليه ، لمعرفة لغة أجنبية طالما أجادها ، وتستغرب من خلصائه(٦) الذين يؤكِّدون لك بأن مروان ، كان يجيد هذه اللغة إجادة تكفيه بأن يمارس عمله الذي له علاقة فيها ، أما اليوم فلا والله يعرف منها سوى ما يعرفه طالب السَّنة الأولى متوسطة ، كبادىء بهذه اللغة ، ولربما أنَّ هذا الطالب يعرف أكثر منه ، ما بك يا مروان ؟. ولشدّ ما يدهشك من مروان ، إجاباته الرَّكيكة(٧) على أسئلتك ، فلا تجد منه جواباً شافياً ، يعلِّل هذا السَّبب ، غير ما أقوله لكم (فمروان خُلس من ذهنه) فلم يعد يذكر شيئاً ، تسيء الظَّنَّ إن أنت أضفيت عليه حلَّة من التَّغفيل المطلق ، فهو ليس إلى هذه الدرجة من الغباء ، ولكن وهن عزمه ، وانحطاط قواه من المكانة بحيث أدّى إلى مثل هذا السلوك ، ضحكة مروان باهتة لا تؤدِّي إلى معنى ، ويضحك حتى ولو أن المناسبة لا تدعو إلى مثل هذا الضَّحك ، ويرسلها قهقهةً أحياناً ، فتظنُّ أن رفيقنا معتوهاً أو مسَّه نوع من الجنون ، يفرط في التَّفكير السَّقيم ، تراه أحياناً مستشيراً ، وأخرى شاكياً ، نادباً حظَّه من الدُّنيا ، وإن استرجع لك الماضي ، أخذ يفصّمه(٨) ويعقِّده دون أن ينظِّم

سلسلة تسترعي منك النَّظر والإمعان ، فتحكم على صاحبنا بشرود الذّهن ، وضياع البصيرة ، فتستغرب منه هذره ولعاعته السريعة إذ ينطلق بها لسانه ، لا يتوانى في الكلمة أو الجملة فيرسلها سريعة متتالية ، ولا ينظر إلى العِلَّة ، إلى السّقم في أحاديثه ، ويهمّه أن يتكلَّم ، ولو أنَّ ذلك مُمِلٌّ ، لا يتقبَّله الآخرون .

الرياض في ١٣٩٠/٥/٦ هـ .

(١) لعّاع ولعّاعة : من يتكلّف الألحان من غير صواب ، ومتلعلع ومتلعّ : يمتدّ إذا رفع .
(٢) حجر : حفظ ، وستر ، والحجر : المنع .
(٤) الفاقة : الفقر ، والحاجة .
(٣) الرّمق : البلغة من الشيء ، أو من العيش ، الرّمق : الفقراء .
(٥) رغد : واسع ، طيّب .
(٦) الخلصاء : الأخلّة .
(٧) ركيك العلم : قليله .
(٨) فصّمه ، يفصّمه : كسره فانفصم ، وتفصّم .

عويضة

عويضة رفيقي الجديد ، معتدٌّ بنفسه ، مظهرٌ من مظاهر النّاس الذين ينطبق عليهم المثل القائل (كالجمل لا يعرف اعوجاج رقبته) ، رفيقنا ينتقد الآخرين دون أن يبدأ بنفسه ، مغرورٌ يرى أنَّ النّاس خلقوا وهم دونه منزلةً[1] ، يسرف في إطراء نفسه ، محاولاً اجتذاب انتباه الآخرين للإشادة بذكائه وعقليته ، ألا يعلم هذا أن النّاس لا يهتمُّون إلّا بمن يفرض نفسه عليهم محبَّة بمكارم أخلاقه ، وبرجاجة عقله ، وألا يعلم هذا أيضاً أن رضى النّاس غاية لا تدرك ، حتى بمن ينال إعجاب النّاس وإكباهم ، وكيف أنت يا رفيقي من هؤلاء إنَّك في منأى عنهم ، وبعيدٌ عن تقليدهم بصفاتك وبغرورك ، وبتقييمك لهم بحيث جئت أعلى منهم مستوى ، ماذا تريد من النّاس ما دمت ضعيف الإرادة ، تائه السلوك ، يعتريك من النَّقص ما تعجز عن أن تسطِّره الأقلام ، إنّك مخطىءٌ يا رفيقي ، كيف تنصت إلى الآخرين مجاملة منك لهم ، ثم تصفِّر صفرةً متعجِّباً وأنت لا تستمع إليهم ، ولم يدخل إلى ذهنك من حديثهم شيء ، والدَّليل مجاملاتك[2] بالتَّصفير ، في وقت أنَّ حديثهم إليك ، لا يستحق كل هذا الإعجاب[3] ، هل أنت تسخر من النّاس ، أو تزدري نفسك فتصرفها عن ترَّهاتهم ، كما تعتقده في أصالة نفسك ، كيف

تريد منهم أن يألفوك ، ويأنسون إلى حديثك ، وأنت تنصرف عنهم بشئونك الخاصَّة ، فلا تعيرهم من الانتباه غير ما تجاملهم به ، كذباً ، ونفاقاً ، إنَّك لونٌ غريبٌ من ألوان البشر ، فأنت دون المفاخرة ، وأقرب إلى السّخف[٤] والسَّفه[٥] منك إلى التَّطاول في المفاخر ... رفيقي عويضة هذا أسلوبه مع النّاس ، ينشد إلى نفسه المعالي ، فلا يخلد إلّا في الفشل الذريع طول حياته ، سوف لن ينجح أبداً في علاقته مع النّاس ، ما دام يتَّخِذ من هذا المنوال ، درباً يهتدي به إلى النَّجاح ، رفيقي لا يتقشَّف في حياته اليوميّة ، وتراه يتزيَّن بأجمل الملابس ، ليبدو مظهراً من نفسه يفوق المجتمع حوله ، بكل شيءٍ حتى في هذه الصبغة ، عويضة لا يحب الإنفاق ، حتى في مجاملات الخداع[٦] التي يسلكها مع النّاس ، تراه طيلة يومه قابعاً[٧] في بيته لا يخرج منه ، إلّا بأبَّهَته التي اعتاده النّاس عليها ، متكبراً مختالاً[٨] ، والغريب في عويضة أنه لا يسلك إلّا ما لم يعتاده غيره في بعض الظَّواهر ، وتجد ذلك ظاهراً عليه ، وترى الإجماع منهم على قذفه بما لا يرضيه ، فيتهامسون ويوشوشون على أنواع ضروب الاستهتار بهم ، مقابلة من المذكور ، وكأنَّما هو يريد أن يبتدع أو يخلق ظواهر لم يألفها المجتمع ... وهذا ما يمقته المجتمع من عويضة كفرد منهم ، ولو أن الطّرق التي يتبعها من الأخلاق في شيء لنال عويضة من المجتمع تقديراً واستحساناً ، ولطاب له أن يقتفي أثر عويضة في تجديده لبعض الظَّواهر التي انتقد بها رفيقي عويضة ، إنَّها شواذ أضرب أمثلة كان يطبِّقها رفيقي هذا ، أحياناً كثيرة تراه ملتقطاً قلمه بأسنانه ولمدَّةٍ طويلة ، أو يمسك بنظّارته فيعلّقها في جيبه بيدها ، ثم تتدلّى بقيَّة النَّظارة لتبدو ظاهرة إلى النّاس ، تبرق على أنوار القناديل ليلاً ، أو هو يميل بطاقيَّته ، بحيث تظنُّ أنَّها ستوشك تغطية عينيه أو بالوقوع نهائياً على الأرض ، أو ينوِّع تسريحة شعره مراراً في اليوم ، فتظنُّ أن عويضة قد اتَّبع طريقة الخنافس

هذا الوقت بالذّات ، الذي اتَّسعت فيه هذه العادة شيوعاً ، والتي يقلِّدون بها النساء بإطالة شعورهم وتسريحاتهم ، وبطرق الحلاقة لشعر الوجه . إن رفيقنا مستهترٌ(٩) تملّه الأرض التي يمشي عليها ، تستثقل من مخلوق يشمخ كبرياء وعظمة ، فكأنما هو يريد أن يخرقها بعظمته ، أو يبلغ أعلى قمم جبالها ، وإن رغبت النِّقاش مع عويضة فإنّه لا يسلِّم حتى بأبسط الآراء صحَّةً ، ولا ينظر إلى آراء الآخرين إلّا صورة باهتة لا تؤدِّي إلى معنى من معانيه التي تروج كساداً(١٠) من النّاس ، عويضة يركن إلى الخمول وليس ذلك ديمومة منه في الإفراط به ، بل يمضي أكثر يومه في الانعزال عن النّاس بعيداً عنهم ، ولربَّما أن تركيب النَّقص في عويضة جعله يتبرّم(١١) بالمجتمع ، ولكن المجتمع أيضاً يكره عويضة ككره عويضة له .

الرياض في ١٣٩٠/٤/١٢ هـ .

(١) منزلة : موضع النّزول ، والدّرجة ، والمكانة .
(٢) جامله : لم يصفه الإخاء بل ماسحه بالجميل ، وأحسن عشرته .
(٣) الإعجاب : السّرور ، أو ما جاوز حدّ العجب .
(٤) السّخف : النّزق ، والخفّة ، وقد تكون بالعقل .
(٥) السّفه : خفّة الحلم ، أو نقيضه ، أو الجهل .
(٦) خدعه : خَتَلَه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم .
(٧) قبع القنفذ : أدخل رأسه في جلده ، والرّجل في قميصه ، وتخلّف عن أصحابه .
(٨) ختَله : خدعه ، والذّئب الصّيد : تخفّى له ، فهو خاتل ، وختول .
(٩) المستهتر بالشيء : المولع به ، لا يبالي بما فعل به ، والكثيرة أباطيله .
(١٠) كسد : لم ينفق .
(١١) تبرّم : أملّه فملّ .

عامر

رفيقي عامر هادئٌ طوال الوقت ، يحب السكينة ولو أنك لا تتوقّعها في من هم يشبهون قسمات وجهه المتعض الغاضب باستمرار ، ربما إنَّ عامراً ، يحبُّ أن يبعد النّاس عنه بهذه الطريقة فهو يحبُّ العزلة واجماً[1] ... كاتماً ما بصدره ، لا يعلّق على مما فيه شيئاً ، عامرٌ حكيمٌ فيما يتصرف باكتتامه ، وديمومته على هذا الاكتتام ، يا صديقي ويا رفيقي إن كنت لا تستطيع أن تمسك أسرارك ، وما في نفسك حتى تعلنه إلى النّاس ، وإن كنت أنت صاحب هذه الأسرار وما في نفسك ، لا تستطيع إمساكها ، فكيف تريد من النّاس أن يحفظوا سرّك ، حتى ولو تُسِرّ إليهم ، طالباً منهم ألا يعلنوا ما تُسِرّ ، هذا رفيقي عامر وما وجدته فيه ... فالنّاس لا تأنس جانبهم إلّا كما تفعل ذلك مع الأفاعي ، وصدّق من قال الحكمة : احذر عدوَّك مرَّة واحذر صديقك ألف مرَّة ، فلربّما انقلب عليك هذا الصّديق ، وناصبك العداء ، فيفشي أسرارك ، وينالك تجريحاً ، فيشمت بك الشّامتون ، ولكن طريقتك يا عامر يمكن أن تهذّبها وتصقلها لتبدو لطيفةً لمن يريد أن يحذو حذوك بها . ابتسم إلى صديقك وعدوّك ، لا تكرِّههم منك على شاكلتك هذه ، يكفي منك انطواؤك على هذه النفس الساخطة غضباً عليهم ، ابتسم ولو تتكلف فيما يمكنك به أن تجتذب

محبَّةَ الآخرين ، إنّهم يكرهوك ، ولربّما أسرّ في ذلك شلّة النّفاق والنقنقة ، نمّامون لا يحبّون إلّا أن يُوشُّوا أحاديثهم بطعن النّاس ، حتى ولو أن ذلك غيبة تكرهها ويكرهها الرّبُّ تعالى ، فيصفها بالقرآن الكريم : ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ ليس لهم شاغل ، في وقت يفرغ ما بجعبهم إلّا أردية النّاس ، يتناولونها تمزيقاً وتقطيعاً ، وأنت يا رفيقي عامر لا تجد من وقتك إلّا الانصراف عن مثل هؤلاء ، لقد أحسنت وتحسن صنيعاً في هذا ، وذلك ما أجلّك فيه وأقدّرك ، وكم كنت مغتبطاً[٢] عندما وجدتك تشدّ من عضد إخوة لك فتنشط ، وتدع عنك فراغهم ، بارك الله في اجتهادك في عمل طالما آتي على فراغك كلّه فيما يفيد ، أراك تستيقظ مبكّراً فلا تقنط من رحمة الله ، وتؤدّي واجباتك المفروضة عليك دينا ودنيا ، فلا تترك مجالاً من الدّين ينفذ عليك فيه هؤلاء إلّا وقد ملأته تهجّداً واستمساكاً منك بالعروة الوثقى طريق الحق ، فهم إن وجدوا منك تهاوناً في دين أو دنيا محقِّين في طعنك وتجريحك ولا أجد من وقتك الآخر إلّا عاملاً نشيطاً ، تلتهب حماسة وحيوية لتولِّد طاقة طالما اشتقت أن يستلهم منها الآخرون، بسمة عامر عندما يبتسم يبدو عليها التّكلُّف دون تصنُّع منه لها، فهو يضحك وعلى سجيّته[٣]، ومن ابتساماته المتعددة إن كنت ترقب رصداً منك لحصرها، تجدها على وتيرة[٤] واحدة لا يخلفها ، ولذلك فإنَّك تشتَقُّها من أدغال نفسه التي طالما تبرّمت بالنّاس سخطاً عليهم ، ونفثت[٥] إلى وجهه سموم زادته امتعاضاً واكدراراً قد تجد نظيره في أقلّة ممَّن هم على شاكلته ، ولا تزدريه[٦] ولا تحقّره ، يا من أنت دونه منزلة بل أجلّه وأكبر فيه نشاطه ، وثابر علّك تصبح مثلاً فلا ألومنَّ منك شيئاً ، ولن أحطَّ بقدر منزلتك ، وبذلك ترتفع شأناً بين النّاس .

الرياض في ١٩/٦/١٣٩٠ هـ .

(١) الوجم ، ككتف : المطرق لشدّة الحزن ، وَجَمَ ، كَوَعَد ، وجماً ، وجوماً : سكت على غيظ .

(٢) غَبَطَ الكبش يغبطه : جسّ إليته ، لينظر هزاله من سمنه ، وبالكسر ، حسن الحال ، والمسرّة .

(٣) سجى أو سجا سجوّاً : سكن ، ودام ، البحر والطّرف السّاجي ، والنّاقة مدّت حنينها ، وأسجت : غزر لبنها ، وتسجية الميّت : تغطيته .

(٤) والوتيرة : الطّريقة ، والفترة في الأمر ، وحجاب بين المنخرين ، وغضيريف في أعلى الأذن ،

(٥) نفث ، ينفث ، وينفث : وهو كالنفخ ، وأقل من التّفل .

(٦) المزدري : المحتقر .

قصـير

إنه قصير ، إنّه بعيد عن أن يحقّق معجزة قصير حينما طلب جدع[١] أنفه كما يروي لنا التاريـخ ليحقّـق للّخمييّـن[٢] أمانيهـم فـي كسر شوكـة تدمر[٣] ، وسار المثل (لأمر ما جدع قصيرٌ أنفه) سليم النيّة ضعيف الإرادة ، مستسلماً في كلِّ الأمور ، قليل الكلام ، سقيم التَّصرُّف ، يسرف في النوم فلا تراه إلّا مضطجعاً طيلة يومه ، إذن لو نقرن بين الاسمين ، وننقاد في النِّقاش إلى مخلوقين ، تعاقبت القرون من دون الثاني ، فلم نعد نتدارس من سيره إلّا ما حفظته لنا بعض بطون التاريخ ، لوجدنا أن الفارق بينهما شبهاً قريباً ببعد السموات عن الأرض ، هذا لشيوع صيت ذاك ، وإشادة النّاس لتاريخه ، فقد ضرب لنا من أروع ضروب المكر والاحتيال ليرفع من اسم بلاده ، وليوقع بأعدائه هزيمة منكرة لم تقم لدولة تدمر بعدها قائمة ، والقربان[٤] الذي قدّمه للّخميين (لا يعدو جدع أنف قصير المحتال) ، وبلغة اختلقها هو ، فقد انتحل قصير ، صورة السَّاخط ضد هذه الدولة ومليكها ، ويكفي على شؤمه منه جدعه لأنفه وبذلك أطلقت له تدمر حرّية مزاولة نشاطه التجاري ، حتى ظفر ببضاعته غير المزجاة[٤] في حياته الدُّنيا ، فيحمل إليها تجارة الجند ،الذين ينزلون بغرائر[٥] مقفلة فيضربون صميم[٦] الدولة ، وينتشرون في المدينة فجأة على

النّاس ، إنها مكيدة هذا الماكر ، أما رفيقي قصير فلا والله ضعيف ، سليم النيَّة ، ولربّما أن منزلتهما في يوم الحساب يظفر بها قصيري هذا ويفشل فيها ذاك ... والله أعلم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم .

حديث قصير قليل غير أن له مناسبات عدّة من اليوم ، يستيقظ أحياناً من نومه فيخرج من بيته ويعاود الاستلقاء على فراش معدّ لبعض الأصدقاء ومن ثم يبدأ بالحديث مع بعضهم أحاديث سقيمة دميمة ، يكلِّمنا بأيام زمان لأنه عمر وقتاً كبيراً ، فهو بنهاية العقد الخامس تقريباً من عمره الآن ، أبناء سبع سنوات يركِّزون أقوالهم أضعاف أضعاف تركيز قصير ، فقصير أحاديثه مقتضبة ركيكة ، مملّة أحياناً ، وبالرغم من برودة أعصاب قصير واستكانته ، إلّا أنه عصبيٌّ في بعض الحالات ، وتراه أحياناً محتدّاً ساخطاً ، يسبُّ ويشتم ولكنَّه لا يطيل ، ومن بعض ما يحلو لي أن أذكره بصفات وطبائع قصير ، محاولة بعض الزملاء الاختلاط في مذهب قصير ، فيمازحونه ، ويجارونه عندما يثور ، فتراه يركن إليهم موشوشاً ، في أذن هذا ، وهامساً في أذن ذاك ، ثم يبدأ بأقاصيص وخرافات جدّتي التي كانت تكثر لنا من خزعبلات[٧] الماضي ، والتي لا تعدو خرافات ، إنَّه يحفظ هذه القصص ويجيد تصويرها ، كما لو كان يرويها عن هذه الجدّة . وليس في جعبة قصير إلّا بما تنطلي ألوانه على العامَّة ، ولكنّك إن أنت أحببت التَّعمُّق ، لتسبر أغوار نفسه ستجد أنَّ هذه النّفس كانت قد تعرَّضت لهزل وضواء فيما مضى ، ولربّما تحكم على أنّها اعتدلت واستقامت أخيراً ، فلا يخلو رفيقنا على حسن نيّته من أخطاء ، ولربّما أن لها علاقة في تكوين شخصيّته أو هي كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر في خلق هذه الشخصيّة المهزوزة ، المترنِّحة[٨] ، جسمه الضّعيف الذي يهتزُّ كما لو كان قصبةً في مهبِّ الرِّيح ، واهن القوى لا يسير باعتدال فقامته يقوِّسها حدبٌ في ظهره ، ورأسه لا يرفعه ولو طال به المسير ، فهو لا يرى إلّا متّسع

أقدامه أثناء السَّير ، وتتعجَّب من رفيقي هذا حينما يخلو إلى نفسه ، أو يسير مفكِّراً متعمِّقاً في هذا التفكير ، إنه لا يخلو إلى نفسة إلّا وتراه متعوِّذاً من الشيطان الرّجيم ويكرّر هذا التّعويذ ، حتى لتحسب أن الشيطان وأعوانه هم على عراك مع قوى قصير ، يريدون تحطيمها وإن صارحك ، تستطيع بإنصاتك إليه ترامي تعاويذ قصير من إبليس والشَّيطان ، ويذكرني بقصة أحد رعاة باديتنا ، فقد كان الشَّبه إلى حدٍّ كبير بينهما ، في مثل هذه التَّصرفات ، فقد كان هذا الراعي يرعى إبله ، ومن عادته أن يقصد رياضاً يكثر بها الكلأ البرِّي بأنواعه ، في النَّاحية الشَّرقية من نَزْلهم ، وكان بين عشيرته شخص اشتهر بالمكر والخداع والحيل الفكاهية واستطاع الاخير أن يتبع هذا الراعي خفية حتى إذا ما وصل الرّاعي بإبله إلى الروض ، اختفى عن أنظار الرَّاعي بشجيرات حتى سنحت له الفرصة ، فرصة صاحبنا ، وفّق أن يمكر بالراعي وخديعته هي ، أنه عندما أضحت الشمس ، قام الرّاعي إلى أحد الخلفات[9] ودرّرها واحتلبها بربعية[10] خشب ترافقه في غدوِّه ورواحه ، أعدَّت لهذا الغرض ، ولما أيقن منها أنها امتلأت حصره التبوُّل ، فاضطرَّ إلى تركها لقضاء حاجته ليبعد قليلاً عن مكانها ، وعدى الماكر مسرعاً إلى الرّبعية واجترعها شرباً نهماً ، حتى لم يبق فيها غير الرَّغوة[11] ، وتركها وعاد إلى مكانه ، في وقت لم يأن فيه للراعي قضاء حاجته ، ولما عاد إلى الرّبعية ، وجدها فارغة فذهل مما حدث ، وأخذت تساوره الشُّكوك ، كان يفعل تماماً كما يفعل قصير ، ولم يأنس إلى الرّبعية التي قذفها بإصبع أحد رجليه ، متعوّذاً من الشيطان الرَّجيم ، مسمّياً بالرَّحمن الرَّحيم ، وبدأ يشك في الرّبعية التي كانت ترافقه طيلة الوقت ، فلم يتغيّر منها شيء إلّا أنّها ابتلعت اللّبن ، هذا على زعم الرّاعي ، الذي ترك الرّوض ، الذي حصل به الحادث وترك ربعيته فيه ، غير أنَّ الخبيث الماكر كان يتتبعه ، ولما أيقن أنّه أمن في الرّوض الثّاني ، واحترّت

الهاجرة[١٢] قام الراعي المغفل وثبّت عصاه في الأرض متظلّلاً بعباءته التي ألبسها العود ، وارتاح قليلاً متّقياً الحرّ ، ولم يعلم أنَّ المحتال انفرد بالرّحول (الرّحول الناقة التي يركبها الراعي) والتي تألفه فلا تعدو المكان الذي يقيم فيه الراعي إلّا طلباً للمرعى من حوله ، الماكر نقل الرَّبعية ووضعها باللبيد (واللبيد خباء على الرحول يضع فيه الراعي قربة مائه وجراب تمره ، وصميل لبنه) ولما أعصر اليوم قام الراعي المسكين ، وامتطى رحوله ناوياً الخروج من هذا الرّوض إلى روض آخر ، في طريقه إلى العودة عندما يأتي المساء ، ولكنّه عندما أخذ راحته متمسِّكاً بسنامها ، شعر بجفافٍ قاسٍ يلكز[١٣] كرش رجله اليمنى ، وتعجَّب من الأمر ، ومدعاة الريبة في نفس الراعي أنه مطمئن ، ربعيته التي جَفِلَ[١٤] منها أودعها الرّوض الأوَّل في أوَّل النهار ، ولا يوجد باللبيد قطعة قاسية غيرها ، وبخفَّة ورشاقة وذعر ، أخذ يتلمَّس أثر اللكزات التي تزيدها إثارة مسيرة الجمل ، ليجد أن العلة ، ربعيته التي ألقى بها ترافقه باللبيد ، فاقشعرَّ جسمه ، وطار صوابه ، وغدت طاقيته كشمسية صغيرة من شعره المتوثّب ، وحيلته في الأمر تعاويذ قصير ، وإكثاره من البسملة ثم تشجّع فأدخل رجله واستخرج فيها بأصابع رجله الرّبعية وهو لاوٍ وجهه عنها حتى استيقن من سقوطها ، بالصَّوت الذي تنادى إلى مسامعه ، ولكنَّ الخبيث كان يرقبه عن بعد ، ولما غابت الشمس وأدمس الليل ، تغفّله وأعاد الرَّبعية إلى اللبيد ، ووصل الرّاعي إلى بيته يسوق إبله ، وطلب من زوجته أن تعقِّل[١٥] الإبل التي برّكت[١٦] جميعها أمام البيت كالعادة ، ولكن عادة قد غيّرها هو ، قد تعوَّدت زوجته منه عند كل مساء بغبقها[١٧] حليباً يضعه بالرّبعية ، وهذا ما دعاها إلى أن تستغرب سلوكه هذه الليلة ، وبادرته بالسؤال أين ربعيّتك يا فلان ؟ قال لقد كسرتها الرّحول هذا اليوم عندما تمرّغت[١٨] !.. وكالعادة قامت بعقل الإبل بعقل خاصة تضعها في

أيديها، وأنزلت اللبيد جانباً عن الرّحول ، وعبثاً فتّشت اللبيد ، لتجد الربعية فيها وتقلّها بيديها ، ولما همّت دخول البيت صاحت بصوت رقيق ، وهي تسير إليه ، وضوء النار يشتعل ليسفر[١٩] هذا البيت وقالت : كيف تكذب عليَّ يافلان وتقول بأن الربعية كسرتها الرّحول وهاهي ذي ؟.. وما أن تأكّد من قولها حتى فرَّ مغرِّباً في الليل و لم يعقِّب ، فصاحت بأعلى صوتها لجماعته تدعوهم إلى أنَّ زوجها قد (جُنَّ) ، وسارع بعض جماعته وقبضوا عليه وصاحوا عليه مالك يا رجل هل جننت ؟.. فقال لا والله أنا لم أُجَنّ ولكن المجنونة .. الرّبعية التي تتبعني منذ الصَّباح ، لقد أطلت بموضوع رفيقي قصير ولأدعه .

الرياض في ١٦/٤/١٣٩٠ هـ .

(١) جَذْع : قطع الأنف ، أو الأذن ، أو اليد ، أو الشّفة .

(٢) اللخميّين : ما ينسب إليهم الملك جذيمة الأبرش أو (الوضّاح) أو الأبرص الذي قتلته الزّباء ملكة تدمر بحيلة حين ثأرت منه لقتله أبيها . وقَتَلَها ابن أخته رقاش (عمر بن عدي) بحيلة من (قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن ربى بن نمارة بن لخم) والده تزوج أمة لجذيمة وولدت قُصير وكان أريباً حازماً أثيراً عند جذيمة ، ناصحاً له .

(٣) تدمر : عاصمة مملكة عربية نشأت في أطراف بلاد الشّام من نواحي البادية ، قضى عليها عمرو ابن عدي ، بحيلة من قصير ، حين جدع أنفه .

(٤) القربان : ما يتقرّب به إلى الله تعالى ، وجليس الملك الخاصّ (٤) مزجاة : قليله ، أو لم يتم صلاحها .

(٥) الغرائر : كل كسر متثنّ في ثوب أو جلد ، والغرائر تصنع من الجلد : عمل فيها قصير ، لتكون مأوى للجنود ، والبعير الواحد يحمل غريرتان ، وجندي بكل غريرة .

(٦) الصّميم : العظم الذي به قوام العضو ، وبنك الشيء ، وخالصه ، ومن البرد والحرّ أشدّه ، والقشرة اليابسة الخارجة من البيض .

(٧) الخزعبل ، كشمردل : الأحاديث المستطرفة ، وخزعبل : الباطل ، والخزعبلة ، العجب .

(٨) ترنَّح : تمايل سكراً أو غيره .

(٩) الخلفات : جمع خلفة ، الوالد من الإبل ، وحلمة ضرع النّاقة أو أطرافه .
(١٠) الرّبعيّة : إطار خشبي يستدير ويثبت على قاعدة خشبيّة مستديرة بإحكام ، تصنع أصلاً لمكاييل صوامع الغلال ، وهي نصف صاع ، أما البادية في الماضي فيستعملونها للماء .
(١١) رغوة اللبن : زَبَده .
(١٢) الهَاجِرة : نصف النهار عند زوال الشّمس مع الظُّهر ، أو من عند زوالها إلى العصر .
(١٣) اللكز : الوكز ، والوجء في الصّدر والحنك .
(١٤) يجفل ، الظّليم من النّعام : ينفر من كل شيء .
(١٥) عقله : البعير شدّ وظيفه إلى ذراعه .
(١٦) برك : استناخ .
(١٧) الغبوق ، كصبور : ما يشرب بالعشيىء ، وغبقه : سقاه في العشيء .
(١٨) تمرّغ : تقلّب ، وتنزّه ، وتلوّى من وجع يجده .
(١٩) سفر الصّبح يسفر : أضاء ، وأشرق .

عــرار

صاحب مهنة ، وكثيرون أمثاله في امتهانها ، يسوق السّيارات كبيرها وصغيرها ، فلا تخفى عليه خافية ، حتى في أدقِّ أجزائها تعقيداً ، هذا ما يؤكّده في كثير من المناسبات ، التي ينطلق بها لسان عرار ، حتى ملّه النّاس وسئموا أحاديثه التي لا تنتهي ، ولن تحدَّ منها طولاً ، حتى ولو حاولت المستحيل ، تجلس إليه منصتاً ، فلا يدعك من حديث أقفل بابه ، إلّا ويفتح لك مصراعي آخر ، يتكلَّف الكذب ويتصنَّعه ، حتى لتراه ضعيف البنية ، خائر القوى ، منهوكاً ، وذلك ما تستطيع أن تلمحه حتى ولو كنت عابر سبيل ، فعرار عندما يبدأ الحديث ، يسترسله استرسالاً دقيقاً متقناً ، في فصول لا تستطيع بها أن تنتقده ، فعندما يبدأ لك في السَّرد يسترجع أفكاره بإغماض عينيه بين آونة وأخرى ، وإذا ما أشكل عليه فصل من الفصول أو هو نسي أو تناسى ، أكَّد صدق قوله بقوله (أنا صادق) أو (هذا الصَّحيح يا جماعة) ، لقد ألفته ، فوجدت من زميلي عرار واحداً من النّاس أضاع (الصحيح بالكذب) فلا يستطيع أن يحفظ قصَّة حصلت ، لأنه يتحاشى أن يرويها مرةً أخرى للنّاس فتنسلخ منه هيبة الوقار ، التي طالما حاول أن يضيفها لنفسه ، ويفرضها على النّاس ، لذلك فإنّك تجده من جديد إلى جديد في قصصه وأقاويله ، لا يمكن إطلاقاً أن

يردِّد حديثاً مرتين ، والعادة التي جرى عليها عند بدئه الحديث ، يستهلّه في السَّيَّارات التي أولع بها شغفاً في حديثه ، فأول ما يبتدرك (فتح السويتش كما يقول)[١] ثم يعطيها الأول ، والثاني ، والثالث ، فالرّاحَةَ[٢] ويعرج إلى محطة البانزين ليعبِّيء (التانك)[٣] (فُلّ)[٤] أي يملأه ثم يشغِّل السيّارة ويلحقها غياراتها ، لقد طلبت منه أن يصوم عن الكلام ، أربعين يوماً علّه يشفى من مرض عضال ، أنهك قواه ، فهو عندما يريد أن يرصف قصّة كذباً ، يستذكر الكذب مجهداً فيه فكراً ، لا يعجز عن مثل هذا الرّصف وقلَّ أن تجد من حديث عرار مثلباً تنفذ إليه فتوقعه في شباك الكذب إلّا نادراً ، فأقاصيصه طويلة لا تنتهي وتعجز عن أن تصنِّفها ، كلّها متباينة ، يسافر أحياناً على سيّارته فيصف لك الحوادث ، دقيقة موزونة وإن أراد ضرب مثل ، يقصُّه لا يخطىء الهدف ، فهو يبدأ لك بالمقدّمات وينتهي إلى المطلوب وإن استحلفته في أن يعيد حديثاً رواه عن قصة ، يتجرّد لك على حقيقته ، فتضحك ، ولكنَّه في أحاديثه الجادّة وميله إليك بشغف يجرفك إليه إنصاتاً ، وهو من النّاس ، لا يلومك حتى ولو تنتقده ، أو تقطع عليه فصل قصّة أضاعها ، أو هو يطلب الصّفح منك قائلاً (والله يا خيّك نسيتها) آفة بصديقي عرار تتآكل بقلبه وجسمه وحواسّه ، كان يستشيرني شاكياً حاله والتي يصفها بأنّه (هو عظم وجلد قِدْقِدْ) ، وأهوِّن عليه بأن ذلك بنية جسمه ، عرار شهم ، حيِّي إلى كثير من النّاس لا يتدخّل في شئونهم ولا يغتاب ، ولا يجامل أو يرائي أو ينافق ، همُّه من نفسه فما دون ، يتحدَّث إن وجد أحداً يصغي إلى أحاديثه ، أو أجزأ نفسه بصرفها عن عنعناتهم[٥] أو عنجهياتهم[٦] ، كريماً معطاءً ، عرار ما تملكه نفسه يبذله بسخاء إلى الآخرين والصَّديق إليه ، من ينصت إلى أحاديثه ، يتعصّب إلى التقاليد التي يفاخر بها الغرباء ، يخلد إلى السّكينة والدّعة[٧] ، خامل لا يميل إلى النشاط ، يرنو إلى المجالس التي يصفو بها الجوّ لينطلق

مهذاراً ، بمحيطات أحاديثه التي ألفها النّاس ، عصبيّ المزاج ، يحتدُّ إن أغيض[٨] بشيء ، هادىء الطّبع وقورٌ في جدِّه وهزله ، لا يحمل عليه النّاس إلّا نادراً ، لأنّه ينصرف عنهم بشؤونه فلا ينقل الكلام ، ولا يروي عنهم ما يسؤهم ، وكثير منهم يشفقون عليه من آفته في الحديث ، ويتمنّون له كل خير ، متناقضات عدّة تعجب بها من صديقي عرار وكثيرون من هم في شاكلته .

الرياض في ١٢/٨/١٣٩٠ هـ .

(١) سويتش : كلمة إنكليزية ، وترجمتها للعربية بمعنى مفتاح .
(٢) يقصد بالأول ، والثاني ، والثالث فالرّاحة : سرعات السّيارة عند التّبديل التدريجي .
(٣) التّانك : أيضاً أجنبية ومعناها مستودع وقود السيّارة
(٤) فلّ : أيضاً إنكليزية ترجمتها (تعبئة) ويقصد تعبئة مستودع وقود السيّارة .
(٥) وعنعنة ،وعننْتُ اللجام وأعننْته ، وعَنَنْتُه: جعلت له عناناً : حبسته فيه .
(٦) و ـــ العنجهيّ بالضمّ : المتكبّر ، والمتعظّم على غيره .
(٧) الدّعداع : القصير ، وعدو في بطء .
(٨) أغيض : أنقص من حقّه ، ويقال : أعطاه غيضاً من فيض : قليلاً من كثير .

المحتوى

التنضيد والإخراج
دار الشادي
دمشق ص . ب / ٧٨٣٠
تلفون ٢١٦٥٣٩